سلسلة أوراق من التاريخ



٣

المغامرون في التاريخ

شاكر مصطفى



رَيــــع الــــدّار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـــ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ ــ ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

المغامرون في التاريخ

الطبعة الأولى ١٩٩٦

سلسلة أوراق من التاريخ



المغامرون في التاريخ

شاكر مصطفى

المغامرون في التاريخ/شاكر مصطفى . ــ دمشق : دار طلاس للدراسات والترجمة ، ١٩٩٥ . ــ ١٥٢ ص؛ ٢٠ سم . (سلسلة أوراق من التاريخ) .

١ ــ ٩٢٠ ع   م ص ط م   ٢ ــ العنوان   ٣ ــ مصطفى .
مكتبة الأسد

ع ــ ١٩٩٥/٧/١١٥٢   رقم الاصدار ٦٧٣

كلمة أولى

ــ سندباد ! ما الذي يغريك وراء الأفق ؟
ــ الأفق الذي بعده .
ــ وهل يسكن الشيطان في إهابك ؟
ــ إني أنا الذي يسكن فيه . إنه من صنعي .
ــ سندباد عم كنت تبحث وراء البحار السبعة التي قطعت ؟
ــ أبحث عن ذاتي !
ــ وهل وجدت ذاتك بعد كل هذه المغامرات ؟
ــ لم أجد حتى لون عيني !!
ــ غريباً كنت . وغريباً عشت . وغريباً ستظل إلى الأبد !

كذلك كان حوار ناسك الجبل مع سندباد الأشعث الأغبر الذي مر به وعيون معلقة في الأفق . لكن سندباد ظل يحلم . فأضاف الناسك :

ــ السنونو يخرق الأجواء ويثيرها حتى إذا أدركه التعب هدأ على شريط ممدود . وراح يتأرجح . القمم الزرق تندفع في السماء متفردة كأنياب الموت وتشتهي أن يلفها بعضها إلى بعض لقاء . والسيوف ترجع بعد الدماء إلى أغمادها فتنام .. أما أنت ! فقد تطوف الدنيا ولا تجد صدر الحبيبة الذي تهدأ عليه . عبثاً تركض خلف كل مجهول . السر الذي تطلبه وراء كل سد مغلق ! وستظل تهيم أبد الآبدين لتلحق عبثاً ظلك !

الشعلة بين أضلاعك يا بني وأنت تبحث عنها !
أم انطلقت أقدامك من القوس فلا ردة ولا وراء ؟ ..

شاكر

المغامرة

حديث المغامرات جذاب، تضحك الجنيات في جوانبه وترن الخلاخيل. إن له لوسوسة مثيرة قلما استطاع إنسان أن يصم أذنيه عنها. كالخبز الطازج للجائع كذلك تغرينا المغامرة. تشدنا من الأذيال. تفتن. تصبي. تزغرد في الجوانح بألف موال. تذهب وتجيء بالجانب الطليق من أوهامنا ومن الأجنحة.

قصص المغامرات نسجت الإنسان منذ كانت الإنسانية. وإذا حفظ البشر التواريخ وقصص التواريخ فلأمر ما فعلوا ذلك... ألف سبب كان يدعوهم لتداول أخبار المغامرين الكبار. لتقليدهم. لتخليدهم. للمتعة بأمجادهم، أو للشماتة بمصارعهم، أو للتعويض عن الواقع المهدور... قد يكون ذلك. ولكن مهما تعددت الأسباب فكل الطرق تؤدي إلى روما أو إلى الطاحون كما يقولون... فالمغامرة هي المغامرة. ولو خلا التاريخ من المغامرين لم يخل فقط من أحلى ما فيه، ولكن خلا من التاريخ لأن الإنسانية حينئذ تدور في فراغ كبعض زواحف الغريزة. ولو لم يكن المغامرون موجودين لأوجدهم الناس. إنهم لا بد يبتكرونهم، يخلقونهم خلقاً. أساطير الأبطال هي انعكاس شوق الناس إلى ما فوق البشر. صورة أمانيهم التي أجهضت وهي أجنة. صدى ارتطام رؤوسهم بصخور الأرض وشوك هذه الصخور. التوق لغير العادي، للبطل، لما فوق الإنسان يخترق كل الناس ويسكن جميع الشرايين. ألست ترى أن حديث الجدات للأطفال إنما يكون عن «المغامرات» ولو أنها مكذوبة؟ وأن الرواية، هذا النوع الأدبي المسيطر في العالم، ليس في النهاية إلا حديث

المغامرة . وأن أبقى ما يبقى من حصائلنا الفكرية هو ما اتصل بالبارز الغريب من القصص ؟

وليس أكثر من المغامرين في التاريخ . هم ملحه وهم بهاره اللاذع . هم الهزة فيه بين آونة وأخرى . ولكنهم تارة يهزون الكون وتارة لا يكونون أكثر من عاصفة في فنجان . والمغامرون الكبار ، عمالقة النار ، هم نبض هذه الأرض الدموي الحار . وسواء كانت نتيجة المغامرة ظلامَ القبر أم قضبانَ السجن أم ذهبَ العروش الوهاج ، فإن المغامرة هي أداء دور . موقف إنساني . تجديد للذات وللآخر . وحين يغمض المغامر عينيه إلى الأبد فهل تراه قد شبع . أو يئس ؟ أو ندم ؟ أبداً . المغامر يموت وما تزال في خاطره مغامرات أخرى لم تر النور ؟...

بعض الناس مسكونون بطاقات شيطانية ، أو على الأقل ، تستهويهم الرؤى المجنونة فهم وراءها يلاحقونها . بكل قوى الذات . يغامرون ... ولكن المغامرة ألوان ، وأشكال ... الطفل منذ يقف على قدميه تبدأ مغامرته فلا تنتهي إلا حين يطبق جفنيه الإطباقة الأخيرة . ورائد الفضاء الذي نزل على القمر ذات يوم من سنة ١٩٦٩ مغامر . ونابليون الذي عجن أوروبا عجناً يطيح بملوك ويوجد ملوكاً ويزرع الأرض دماء وسنابك خيل ، هو بدوره من أبناء اللعنة ، تنغل المغامرة في دمه نغلاً . وعباس بن فرناس الذي ركب لنفسه جناحين يريد أن يطير ، هو أيضاً وأيضاً مغامرة سقطت وكلفت صاحبها الحياة . وهرقل بطل الأبطال الذي ابتكره الإغريق ، وألبسوه اثني عشر عملاً من الخوارق قبل أن يلبسوه الحلة المسمومة التي هرأت جسده إنما هو صورة من المغامرات التي يحبون ... وقصص الأنبياء إنما تروي معاناتهم في الحياة وما لقوا فيها ومنها . والأبطال المحررون للشعوب مغامرون يجتذبهم نجم مجهول . والفاتحون يجازفون في سبيل إكليل من الغار قد يصلون إليه أو لا يصلون ...

وخطوط المغامرين بدورها مختلفة . بعض ينتهي في الأرجوان والمجد

وطبول الدنيا تزغرد له وبعض يسقط، يسقط، يسقط حتى يحشر في المجرمين. وبعض يرغم على المغامرة وهو لا يريدها فهو مجرور إليها بالسلاسل، وبعض تتشهاها شرايينه ولكنها تموت في الشرايين لأنها لا تجد السبيل إلى النور. وبعض كالشهب المحترقة يتألقون لحظات ثم ينطفئون في الفضاء العميق...

على أن المغامرة اختلفت بين الأمس واليوم اختلافاً كبيراً. اختلفت أبعادها مع الأيام كانت قتل تنين موهوم، أو فتحاً تجر له العساكر وتدق الطبول، أو إبحاراً ضد التيار. أو تحدياً لقانون من قوانين الطبيعة، أو انطلاقة في المجهول. فصارت اليوم لا ألف نوع وألف شكل فقط بل بُعدٍ أيضاً. صارت تمسك بأذن التاريخ وتجره إليها. تجاوزت الأرض إلى الأفلاك العلى. كانت سيفاً وترساً وعضلة مفتولة فصارت مجازفة في الأفلاك، يشترك فيها عشرات الألوف. صارت ابتكاراً يمكن أن يمحو نصف البشرية. صارت قيادة تسوق آلاف القوى التي ساقها الاسكندر وجنكيز ونابليون جميعاً بعضهم مع بعض. صارت لعبات مالية تلعب بثروات الدنيا بين بضع قبضات. صارت شركات احتكارية من عالم الأشباح الضخمة بيدها أن تجيع الملايين، أن تحصد الملايين، أن تصب في القبور بالملايين. المغامرة تعشش الآن في كل الرؤوس وتظهر كل يوم بأشكالٍ طَلْعُها كأنه رؤوس الشياطين... ولسنا إلى التعليل الفردي للتاريخ وإلى رفض المذهب الاجتماعي إذا قلنا أن معظم أحداث التاريخ إنما كتبها المغامرون.

وبعد ففي النفس أشياء كثيرة تقال سوف نحاول أن نروي بعضاً من قصص المغامرين الأولين. بعضاً من أخبار هؤلاء الذين رسموا مصائرهم بأنفسهم، صاغوا أقدارهم بأيديهم تسوقهم قدرة إلهية إلى صياغتها. لقد تكون الطرافة لا البحث العلمي هي التي تسوق الحديث. ولن نقرب الشجرة الملعونة، شجرة هذا العصر. إلا بقدر معلوم. إن جنونه وأسراره وقواه أنواع

وألوان . وهي تتجاوز حدودنا ، حدود أيام السيف والترس ... عن الماضي ومغامري الماضي في الغالب سوف يكون الحديث . إنها جولة في دنيا الغابرين الأولين .

قبل أن أتركك إلى حديث الغد احتفظ لنفسك بجواب هذا السؤال القلق : أليست الحياة كلها مجرد مغامرة ؟

المغامرون مرة أخرى

كان الدليل أمامنا يرطن بعدد من اللغات مما تعرف ولا تعرف . ونحن وراءه أفواه فاغرة وعيون تصطدم بالرماد الحجري وسواد ما يزال يحلم بالنار والمهل الجهنمي في مدينة بومبي الإيطالية . وسمعت الدليل يقول :

منذ ألف وتسعمائة سنة ونيف ، كان هذا الدرب الذي تتعثرون عليه الآن يجري تحت العجلات الحديدة التي تأكل صخره ، وتحفر هذه الأخاديد فيه .. والمدينة تضج بالحياة والحركة مزدحمة بهؤلاء الذين ترون هم أنفسهم : هنا بائع الخبز هذا . وبجانبه ذلك النائم حجراً من الفحم إلى الأبد . وبتلك السائخة عند النافذة . وبهذه الجماعة قد ارتمى بعضها فوق بعض على المنعطف . وما تزال ملامح الرعب والمفاجأة في وجوهها المحروقة بالرماد ... وهذه هي الأواني في أماكنها هذا هو الأثاث وهذه انظروا الإعلانات الانتخابية مكتوبة باللون الأحمر على الجدران ، تقرأ فيها أسماء المرشحين والمناصب ، وأسماء الطوائف التي ترشح !! كانت المدينة في عنف حياتها اليومية حين باغتها طوفان النار ... أهل (بومبي) بنوا مسارحهم حماماتهم . القصور . البيوت . معبد أبولو بتماثيله وأعمدته وفسقياته ، فيلا الأسرار ، وتمثال الإمبراطورة ليفيا الرائع هناك ، بنوا كل ذلك على ظهر حوت ناري . على نهد جهنم . وعلى حين غرة تمرد تنين السعير والدخان من بركان فيزوف المجاور والتهب حتى الهواء . الرماد المسعور وحده كان كافياً ليحول المدينة والناس إلى أنصاب من ملح وحجر وفحم ! ...

وهتف أحد السائرين الأمريكيين وراء الدليل :

ــ ألم يكونوا يعرفون أن البركان وثورته كالحقد الأسود . ألا يعرفون أنهم إنما كانوا يجرون ، ويرقصون ، يصلون ، يغازلون ، يبنون ، ينامون على صدر من نار ... على بحيرة من المهل الأبيض تضرب في أعماق الجحيم ؟

ــ بلى ! كانوا يعرفون !!

ــ إذن فلماذا بحق الشيطان وضعوا أنفسهم في فك الشيطان الأحمر ؟ لماذا اختاروا هذا المكان للمدينة دون بقية أرض الله ....

وضحك الدليل وهو يقول بعدم اكتراث : لقد اعتدت هذا السؤال الدائم ! .. الجميع ينقر أذني بالسؤال نفسه وأنا أجيب الجواب نفسه ! إنها المغامرة ! هناك صنف من البشر لا تأخذ الحياة عندهم طعمها الحريف ، اللاذع ، الحي ، الممتلئ ... إلا بالمغامرة .. أرأيت البهلوان على الحبال ولعبة التوازن والموت ؟ هل هم قلائل أولئك الذين يحيون حياة البهلوان على طرائقهم في مغازلة الخطر والعدم ؟

وصمتت القافلة وراء الدليل سوى واحد ظل يثرثر ... وإن لم يأبه له أحد ....

في الفندق حين وصلنا ، جلسنا في حلقة ننتظر العشاء وابتدرنا واحد منا صاحب نكتة قال :

ــ كنا في بلد المجانين !

وعدنا بسرعة إلى حديث بومبي وتماثيل الرماد فيها . وقال أشيب ذو لحية قصيرة :

الفيلسوف الألماني نيتشه : لم يكن ينتقم لضعفه الجسدي حين أثبت وصيته الفكرية الشهيرة « عش في خطر » . لم يكن يبتكر فلسفة وإنما يقرر حقيقة إنسانية واقعة أعطاها هذا الشكل الديني الآمر بشكل مواعظ الكرادلة ، من جلال المذبح ورنين الأصداء والأرغن ... إن الملايين قد عاشوا والملايين يعيشون عند قمم البراكين التي تهتز وترتجف تكاد تميز من الغيظ . وتسمعون لها شهيقاً وهي تفور ، وهديراً رعبه بحجم الأرض . وترون شواظها

كأنه سياط كل الشياطين . ومع ذلك يبقون ملتصقين بأثدائها حتى تندفع منها سيول اللهب المباغتة وتهمي السحب المحرقة ، فإذا الناس في قبور من نار ! لقد اختاروا أقصر الطرق إلى الجحيم ، أليس هذا حال الدكتاتورين وسجاني الشعوب؟ وحال قواد الحروب؟ وحال المقامرين أو المندفعين في سباق السيارات والمضاربين في الأسواق المالية ورجال المافيا وكبار المهربين؟ المخاطرة واقع إنساني . ولو لم تكن كذلك لما وجد القرآن الكريم حاجة للتحذير منها ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ !!

ركوب الخطر عريق الجذور في الإنسان . ومع أنه وراء الكثير من أعمال البطولة الإنسانية ومن منجزات البشر ومع أن الناس ، كل الناس ، يشتهونه من أعماقهم ، يتداولون أخبار المغامرات في شوق وتلذذ ، يتلمظون لطعمها اللاذع الرهيب ، يتناقلونها من جيل إلى جيل وقد يجعلونها أساطير من الأساطير ... إلا أنهم يدينونها . ثمارها الحرام هي الثمار المشتهاة هي تفاحة آدم اللعينة ، وأما معاناتها فلا يقدم عليها إلا أبناء اللعنة أو المتمردون أو كبار الشجعان ... أو من غرهم بالله الغرور .

إنها حرائق كبيرة في صدور المغامرين ، والناس لا يحتملون الحرائق الكبيرة في الصدور . يخشونها .

وقال قسيس : خرجت من هذه المدينة الملعونة وأنا أكثر إيماناً بالرب وأكثر خوفاً من النار .. إنها عظة مبكرة . وأسرع فرنسي قصير يقطع كلام القسيس .

المغامرة تحد للآخرين . جرح لسكونيتهم ، رفض لرتابة الحياة اليومية وإيقاعها الموزون . جرب أن تكون السندباد ، أن تحرق المألوف ، وانظر ألوف الأعين التي تمطرك بالغضب وآلاف الأظافر التي تمزق لحمك المباح ... بلى ! المغامر الناجح وحده يصبح مثلاً . نموذج طموح . مشروع بطولة ... أما

الفاشلون ... عشرات ألوف الفاشلين فليسوا أكثر من موعظة ضائعة ... بلا قبر !!

والمخاطرة ألوان : بعض يجدها على فوهة بركان ولكن بعض الناس يجدونها على نابات الموج المفترس بين الزرقتين اللانهائيتين أو السوداوين اللانهائيين : الماء والسماء. وبعض يبحث عنها في الارتماء على كف العفاريت في الريح، وبعض في ضلال الغابة، مع الوحش والجذور الملفعة بالأفاعي !.. وبعض في سوق الأسهم المالية، أو في قصة حب، أو رقصة على الحبال، أو انقلاب على الحكم. المجهول نوع من اللعنة إذا استبد بالعيون لم تر غيره العيون. تفقد الحياة معناها إلا به، دفء البيت الهادئ يتحول عذاباً، أخف منه معاناة الثلوج المحرقة وأنياب الموت ! ...

وقال رفيق لي ظل طول الرحلة والوقت صامتاً لا يتكلم كأن عشرين ملاحظة وفكرة تتجاذبه :

المخاطرة اختيار للقلق والرعب واللعنة. إنها رقص على الصراط بين الحياة والموت. محاولة لجعل الحياة أغنى. أطرف. أوجع. أعنف. أشرس رغبة في معانقة الحياة عند لقائها باللاحياة. تذوق نكهتها الروية حتى الثمالة هو الإحساس الوحشي بكل جدة المفاجآت فيها ... حتى الموت ! إنهم يسمونها عيش الأيام بالعرض لا بالطول، بكل الصعاب وبكل سلم الأحاسيس وبكل الغرائب في وقت معاً.

ولا نستطيع أن نحاكم المغامر بمنطقك. إن له منطقه ــ العشاق يقولون لك : إنك لا ترى مطر الشوق في عيني الحبيبة ولكن استعر عيوننا لتراه. المغامر منطق آخر. عبثاً تناقشه بالمنطق الأرسطي السكوني. إنه هندسة أخرى، لا إقليديسية، وراء الاقليدسية. لا علاقة لها بكل ما وضع إقليدس من بديهيات ثابتة في نظرنا ثبات الأبد ....

وأردت إدخال نوع من التسلية على هذا الحديث الذي أخذ منحى الجد والجدل قبل الطعام فقلت :

تعود إلى قفص المغامرات التي كتبها البشر فتجدها تملأ الأسفار عرضها السموات والأرض ولكل مغامرة مذاق ولكل مغامرة طريق . جارك قد يقص عليك منها وأخوك ، وسميرك في الديوانية ، وعجوز الحي ! .. فماذا أختار لكم منها قصصاً ؟

فقصص الذين اكتشفوا المجاهل الأفريقية أو الأمريكية ؟ الذين غامروا في المحيطات يصيدون الجزر ، الذين ركبوا الصواريخ إلى القمر ؟ الذين قهروا القمم العصيبة ؟ الذين أجروا زنودهم مرتزقة لكل حرب ؟ بعض من القصص الضائع المنسي .. وليكن شيئاً من قصص الرحلات قد تكفي :

في الأرجنتين سمعت قصة إيمي تشيفلي السويسري الأصل الذي قرر سنة ١٩٢٠ أن يقطع الطريق ما بين بونس أيرس ونيويورك على ظهر حصان ! المسافة التي تعادل فقط نصف محيط الكرة الأرضية . ليست شيئاً . ولكن مخاطر الطريق هي المشكلة ! .. لم يكن ثمة طريق . وقد شق الرجل طريقه الخاص في وحول الأمطار أولاً . ثم على حوافي جبال الأندز العمود الفقري للعالم الجديد كله . هام في الزرائب ، في الغابات ، مع الأفاعي . عبر الأنهر الوحشية . تسلق الوديان المرعبة . سممته الأشواك . سحقته ملاريا المستنقعات . شرب العطش القاتل . كل ذلك كان هيناً ، مع ذلك ... أخطر ما لاقاه هو الإنسان : اللصوص . القبائل البدائية . عصابات القتلة بوجوه كالطين المحروق ... ويوم وصل نيويورك وتمدد على السرير ضرب على صدره ، وهو يضحك قائلاً : هذا الرجل مجنون !!

ولكن المغامرة العتيدة كانت قد تمت ....

مغامرة منسية أيضاً كانت سنة ١٩٥٤ ... مغامرة للعلم . ليست ريادة الفضاء والكواكب ، ولكن أعماق المحيط .

وفي زورق الأعماق، في إحدى نقاط المحيط الأطلسي قرب غرب أفريقيا، هبط اثنان إلى الأعماق. وفي منطقة السواد المطلق، على عمق ٤ آلاف متر..... العمق الذي لم يصله إنسان بعد، فتحا المصابيح كعيون الشياطين على سوابح ما عرفت النور قط، ورأيا ما لم تر عين من المخلوقات... وصورا تلك الأعماق، وفجأة أفلتت المصابيح واهتزت الغواصة... الخطر الرهيب أن ضغط الماء على جسم الغواصة كان أكثر من تسعين ألف طن... فهل تقاوم الجدران؟.. وقاومت الجدران خمس ساعات، حتى رأى زورق الأعماق نور الشمس كرة أخرى. ولكنها كانت خمس ساعات في أنياب الموت! قالا: إنها كانت أجمل ساعات الحياة!!

ومغامر آخر... عنيد نسيه الناس الآن وهو حي... — فيما أظن — هل يذكر أحد ثور هايردال؟ هذا النروجي افترض فرضيتين، وكان عليه في الحالتين أن يعانق المحيط الهادي، ثم المحيط الأطلسي ليثبت كل فرضية. وفعل!... ركب زورقاً صغيراً من خشب البامبا مع خمسة من المتطوعين، غادر بهم البر. وفي أمريكا اللاتينية قطع المحيط الهادي!.. وهذا المحيط وحده ثلث الأرض ليثبت أن سكان الجزر البيض في هذا المحيط جاؤوا من القارة الأمريكية!.. بعد ٩٧ يوماً حطم الموج الزورق والحبال... ونجا الرجل ليحاول إثبات نظرية أخرى، إثبات أن حضارات أمريكا الوسطى إنما جاء أصحابها من مصر... ومنذ خمس وعشرين سنة كان مرة أخرى يركب زورقاً صغيراً من ورق البردي مع سبعة من المتطوعين ويتحدى أمواج المحيط الأطلسي. أبحر من المغرب وبعد ستة أسابيع تمزق الزورق ريح الأول... ولكن ريح الثاني وصل بعد ذلك... إلى جزر البحر الكاريبي. إن المغامرة والإنسان صنوان. رفيقان قديمان...

أليست الحياة كلها مغامرة كبرى يكتبها كل منا على قدر طموحه، وإن لم يكن لنا في معاناتها أي اختيار؟...

وسمعنا من الداخل رنين الطبق الذي يدعونا إلى العشاء فقلت : أخيراً فكروا : أليست كل المغامرات محاولة للبحث عن الطعام ...

وانفجرنا بالضحك !

مغامر قديم
أبو مسلم الخراساني

أبو مسلم الخراساني اسم له في التاريخ دويٌّ أين منه الطبول السبعة ؟ .. قد يجهل الكثيرون اسم الخليفة العباسي الأول أو الثاني أو اسم الخليفة الأموي الأخير ومن سبقه . ولكنهم لا يجهلون اسم أبي مسلم الذي تحدثت به الركبان جيلاً بعد جيل . وربطت قيام الدولة العباسية بذيل حصانه ... يقولون إنه قام بالثورة العباسية ، وإنه هزم الأمويين ، وأقام دولة بني العباس . ويستنتجون من اسم أبي مسلم الخراساني أن الفرس انتصروا بذلك على العرب . وأن دولة العباسيين فارسية أعجمية فيما دولة الأمويين عربية أعرابية ...

هل أصارحكم بأن كل هذا الحديث ما هو إلا من أساطير الأولين والآخرين؟ وليس هذا المغامر بشيء في التاريخ . أو على الأقل ليس بذلك الشيء الهام الذي يصورون ؟ ... بل وما هو بأبي مسلم ولا بالخراساني أبداً ...

الرجل أولاً مجهول الأصل . بعضهم يقول : إنه فارسي وبعض عربي وبعض كردي والأتراك يزعمون أيضاً أنه منهم ! ونحن نجهل أباه . فمن الأب ؟ وماذا كان يعمل ؟ هل كان حقاً خادماً يرعى السوائم أم جابياً يجمع ريع المزارع في أصبهان أو في الكوفة ؟ أم كان يجلب المواشي للكوفة ؟ أم أن أباه هو سليط بن العباس أم هو ولد بزرجمهر ؟ ونحن لا نعرف أمه ، كانت أمة لعمير بن بطين العجلي ، أم كانت حرة ؟ ومتى وأين تزوجت ؟ ونحن نجهل أيضاً متى ولد هل في سنة ٩٧ للهجرة أم سنة ١٠٠ أم بعد ذلك أم قبله ؟ ونجهل أيضاً وأيضاً أين ولد ؟ في أصبهان ؟ في الكوفة ؟ تجاه البصرة ، في قرية سواد الكوفة ؟ في خطرنية ؟ في بعض قرى أصبهان ؟ في ماخوان قرب مرو ؟ ..

ونجهل أيضاً وأيضاً اسمه هل هو بهزادان ؟ أم ابراهيم ؟ أم عبد الرحمن ؟ أم عثمان ؟ .. ونجهل أخيراً متى وكيف وأين دخل الدعوة العباسية ، ومن ذا الذي أدخله فيها ؟. يقولون أن لقي بعضهم في السجن . ويقولون : إن أبا موسى عيسى بن ابراهيم السراج هو الذي قدمه للدعوة ورشحه للإمام... كل هذه الأقاويل والظلمات تحيط بالرجل الذي ظهر فجأة ، وبسرعة عجيبة ، عموداً من أعمدة الدعوة لبني العباس ، يقولون : إنه دخلها سنة ١٢٤ وبعد أربع سنوات فقط صار زعيم الثورة في خراسان ، وقد بدل ابراهيم الإمام اسمه ـــ كما يقولون أيضاً ـــ إلى أبي مسلم عبد الرحمن !! .. وماذا بعد ؟ ..

الثورة العباسية كانت ثورة العرب في خراسان لا ثورة الخراسانيين . كان ثم ٢٠٠ ألف جندي عربي مع أسرهم هناك ، وقد امتلأوا نقمة على السياسة الأموية . وقد أرسل أبو مسلم سنة ١٢٨ ليكون تحت قيادة سليمان بن كثير الخزاعي ، حتى سنة ١٣٠ كان عند أبي مسلم عشرة آلاف مقاتل فقط فيهم الكثير من العبيد الآبقين... لماذا اختاره الإمام ليكون في القيادة؟ تماماً كما اختير من بعد ذلك أبو سلمة الخلال ليكون وزير آل محمد . أثناء اختفائهم كان العباسيون أحرص على أنفسهم وعلى قادتهم من أن يكشفوا الأوراق فجعلوا في الواجهة أبا مسلم والقائد الحقيقي هو سليمان بن كثير . وسلموا الأمر شهرين فقط لأبي سلمة الخلال أثناء اختفائهم ، فلما ظهروا وحسب أبو سلمة أنه شيء في الثورة فتكوا به ... قتلوه بكل بساطة .

وقد خرج جيش الثورة من خراسان وبقي أبو مسلم فيها . فقد كان قائد الثورة في تحركها الأول هو قحطبة الطائي ، وفيما كان هذا الجيش يسير بقيادة قحطبة ، ويحارب في مرو وهمدان ، ويدخل العراق ، ويفقد قائده في مخاضة على الفرات ويتولى قيادته ابنه الحسن بن قحطبة ويتم الطريق إلى الكوفة ، كان أبو مسلم يقتل زعماء العرب في خراسان واحداً بعد الآخر . وبالحجج المختلفة ، ويقتل معهم الآلاف المؤلفة ...

قتل عبد الله بن معاوية بن الجعفري سنة ١٢٩ وشيبان الخارجي والأفلح بن مالك الفزاري . ثم قتل علي بن جديع الكرماني ، زعيم اليمانية . وقتل أخاه عثمان معه ، وقتل عيسى بن ماهان الذي اعترضه ...

وتابعت الثورة العباسية تحركها الثاني بعد الكوفة ، وبعد مبايعة أبي جعفر المنصور وعبد الله بن علي عمه ، فأخذت العراق والشام ومصر ، وأبو مسلم وحده في خراسان . كانت آمال هذا المغامر قد تحركت ، وجاوزت به حدود القائد الصغير إلى الملك العريض . لم يكن ثم من يقف له فتصرف كالحاكم المطلق . زاره أبو جعفر في خراسان فعاد مهرولاً إلى أخيه أبي العباس يقول : لست بخليفة ولا أمرك بشيء ما دام أبو مسلم حياً . لقد رأيته وكأن لا أحد فوقه ، اقتله قبل أن يفسد عليك أمرك ! ...

ولم يتمكن أبو العباس من قتله مع أنه تحداه حين طرد عمه من فارس ، بعد أن أجبره على أن يقسم ألا يعلو منبراً ولا يحمل سيفاً إلا في الجهاد ، وطرد والي أبي العباس من السند وعين بديلاً له من عنده . كان القسم الشرقي من الدولة قد سقط في يد أبي مسلم المغامر المجهول . وبلغ الغرور بالرجل أن أراد إثبات قوته ، فتحرك إلى الحج عبر العراق في حاشية من عشرة آلاف رجل . وضايق أبا جعفر طول الطريق إلى الحج . كان يتقدمه في المسير . ويعكر عليه الماء قبله . ويستعرض نفسه عند عرفات ! . وأحفظه حين كان يخاطبه باسمه عبد الله لا بالكنية . ويقدم اسمه عليه في الرسائل وحين خطب آمنة بنت علي العباسية ونسب نفسه لسبط بن العباس ...

وامتلأ أبو جعفر غيظاً وحنقاً . وفيما هما في طريق العودة توفي أبو العباس ، وآلت الخلافة إلى أبي جعفر . وثار عليه فوراً عمه عبد الله بن علي ! ..

وعهد أبو جعفر إلى أبي مسلم بمحاربة عمه في شمال الشام يريد إقصاءه عن خراسان من جهة ، ولا يبالي أيهما طحن الآخر من جهة أخرى . وقبل أبو

مسلم ، وفي ظنه أن عبد الله هو القوي الذي يجب أن يهزم ، ليصبح أبو جعفر دون حول ولا قوة . وينفرد المغامر بخراسان ! .. وحين استدعاه أبو جعفر إليه أقبل ، وفي ظنه رغم تخوفه وحرصه ، أنه أكبر بكثير من أن يقتل ... وأن أبا جعفر أقل من أن يغدر به . لكن حسابات أبي مسلم المغامر كانت خاطئة فقد استقبله أبو جعفر وجهاً لوجه وندد به ثم صفق بيديه فهجم الجند بالسيوف من وراء الأستار ، فأجهزوا عليه . ولم يكن أبو جعفر بحاجة لأكثر من قبضات من النقود ينثرها على أتباعه لينفضوا ...

هل انتهت المغامرة كلها ؟ .. بل بدأت ...

كان أبو مسلم ــ فيما يظهر ــ على الاتصال القوي بالجماعات الزرادشتية فثار على الفور منها مائة ألف سيف هُزموا أشنع هزيمة . وصنعت الهزيمة من أبي مسلم بطلاً محلياً ...

وتضخم اسمه . لحقته الأساطير والنبوءات انتظر بعضهم عودته ، وبعضهم أصر أنه طار من يدي أبي جعفر كالنسر . وبعضهم أله ابنته فاطمة وصار لدى آخرين من الترك بطلاً قومياً . تحول أسطورة شعبية عاشت عدة قرون مع أنه مات وعمره حوال السبعة والثلاثين . ولم يحكم خراسان سوى خمس سنوات ! .. طار صيت أبي مسلم بعد أن انتهى .

كانت مغامرته الحقيقة بعد الموت !! .

جون براون

أيها الزنجي يا بائع التمرد المجهول
أنت تعرف طرقات العالم كلها
منذ أن باعوك في غينيا
يا أسود يا رسول الأمل
أنت تعرف جميع أناشيد العالم
بدءاً من أناشيد الورشات الأزلية
على ضفاف النيل
ما من أرض لم يسل فيها دمك
وأنت تبتسم أيها الفتى الأسود
ترقص تهدهد الأجيال
لتكتب بجميع اللغات
في الصفحات الصافيات للسموات أجمع
إعلان حقوقك التي أنكرت عليك ! ..

هذه الأناشيد وأمثالها نسمعها اليوم تتصاعد ظافرة قوية من أعماق أفريقيا ، فنقبلها ونجد أنها الحق . صرنا اليوم برغمنا نفسح المجال للشعل السوداء كي تضيء بدورها التاريخ والمستقبل . لم يعد الإنسان الأبيض كل شيء في العالم صار له أخ أسود ، وآخران أيضاً أصفر وأحمر ! .. كبرت العائلة الإنسانية وأورفيوس الزنجي دخل الجوقة . ينشد ، ويبني ، ويبدع ، ويأخذ حقوقه الإنسانية ... قبل الآن بمائة سنة فقط لم يكن لهذه العائلة وجود !

كان الرجل الأبيض وحده سيد الكون . وأولئك الذي كانوا يستمعون لمثل هذه الأناشيد في أعماقهم ، كانوا يخنقونها . كانوا يتمزقون . من ذا الذي كان يجرؤ أن يمد يده للأخذ بيد زنجي في القاع ؟ .. الإسلام وحده فعل ذلك . ولهذا تقبلته القارة الأفريقية ديناً ومعتقداً . لكن أوروبا عادت فخنقت كل شيء . ساقت الزنوج بالملايين على الأشرعة إلى أمريكا ، آلات حراثة وخدمة . زنزاناتها والسلاسل والسياط ما تزال تقوم على السواحل السوداء تنتظر السفن . بعض رجال الدين فقط كانوا يرفضون هذا الواقع ويبكون . بعض العيون فقط كانت تنظر إلى المستقبل مؤمنة أن هذا الذي يجري لن يستمر ! .. بعض الثوار فقط كانوا يرفضون ويرفضون فتلتهم السيوف رؤوسهم والعيون !

من هؤلاء الثوار كان سبارتاكوس القديم في روما . وكان صاحب الزنج في العهد العباسي ، وكان جون براون منذ قرن وبعض القرن . هل سمعت بجون براون ؟ سأحدثك حديثه ، في ١٨٠٠ ولد في بلدة نجتون ثور هذا المغامر . أبوه القادم على الباخرة ماي فلور كان مغامراً مثله . كل من كانت تقذفهم السفن على البر الأمريكي في تلك الفترة كانوا مغامرين ، وإن تفاوتت حظوظهم في النجاح والفشل . البلاد الجديدة كانت مفتوحة الصدر لكل مغامر . كانت بلد الغد والناس يغيرون فيها بلدهم ، وعملهم ، ومصائرهم ، كما يغيرون الثياب . ودرس جون براون أولاً اللاهوت ليكون قسيساً ثم ما لبث أن أغرته الحياة العملية فترك اللاهوت ليعمل في الدباغة . وفشل في الدباغة ليعمل في الرعي . المراعي كانت ممرعة . وجون براون قوي البنية ، شجاع العزم جداً . ولكنه ترك الرعي في النهاية إلى تجارة الصوف . مصانع النسيج كانت قد أخذت تلتهم الكثير منه . في هذه الأثناء كان الرجل قد تزوج مرتين ، وأنجب عشرين ولداً ... وحين نزح خمسة من هؤلاء إلى ولاية كنساس ١٨٥٤ لحق بهم الأب ليستقر هناك ويتابع تجارة الصوف مع مصانع النسيج الناشطة في الولاية . لكنه ما لبث أن غرق إلى الأذقان في مشاكل « كنساس » كانوا يسمونها

« كنساس النازفة » لأنها دخلت في نزاع متصل مع الولايات الجنوبية بشأن الرقيق من الزنوج .

كان من مصلحتها أن يتحرر الزنوج ليكونوا عمالاً في المصانع . ومن مصلحة مالكي العبيد في الولايات الجنوبية أن يربطوهم بالأرض للحراثة والزرع . الولاية الجارة ، ميسوري ، كانت ترى في مصانع كنساس وفي أصحاب المصانع الخطر الداهم على مزارعها ورقيقها ، ولذلك كانت تحاربها أشنع الحرب . وقامت المناوشات التي سموها حرب الحدود بين الولايات المتضاربة في المصالح !! ..

واستيقظ في جون براون لا المغامر القديم ولكن رجل الدين الكامن أيضاً واختلط الشخصان ... تحولت المصلحة عنده إيماناً بحتمية تحرير العبيد وتحول الإيمان إلى نوع من الهوس . تصور أنه مرسل من الله لأداء الرسالة المقدسة : رسالة تحرير الرقيق . وجمع حوله جماعة كان من أول أعمالها إجبار الكابتن بيت وهو من أنصار الرق على حمل امرأة زنجية وطفلها إلى مكان أكثر أمناً . ولكن ذلك كلفه الهجوم على بيته . وقد صد الهجوم ولم ينجح ، بسبب قوته ، في دفع المهاجمين إلى الهرب فقط . ولكنه قرر الطواف بالبلاد ، يجمع المال ، ويحشد الرجال لفكرته . بعد سنتين أقام في جبال فرجينيا ملجأ للعبيد الآبقين . كان أشبه بدويلة صغيرة . ثم ما لبث أن أقام في بقعة من الأرض الكندية حكومة مستقلة سماها : المؤسسة المؤقتة لنظام من أجل شعب الولايات المتحدة . وجعل لتلك الحكومة مجلساً (كونغرس) ووزارات ودوائر ونصب نفسه قائداً أعلى لحكومة المنفى هذه . ولم يكن أتباعه يجاوزون بعد ٤٦ رجلاً ١١ منهم فقط من البيض . وفي أكتوبر ١٨٥٩ قرر الهجوم على مستودع الأسلحة الخاص بالحكومة الفدرالية . هاجمه بثمانية عشر رجلاً واستولى على ما فيه . لم يتنبه إلى أن الرسالة التي كان يدافع عنها هي أضخم بكثير من الجهاز الذي كان يحملها . كان ينتظر أن يؤدي عمله إلى ثورة جميع العبيد !

ولكنه كان أشبه بشعلة تنطفئ في مستنقع! وطوته قوات المليشيا المحلية في فرجينيا ومن المارينز ... وأبى جون براون الاستسلام. ولكن ضربة على رأسه من الكولونيل لي ساقته إلى السجن، مع ستة من رجاله، بينهم اثنان من أولاده، بعد أن قتل عشرة منهم وهرب الباقون!

وحين قدم جون براون للمحاكمة لم تشفع له أفكاره الحرة، واعتبر من المجرمين وحكم بالإعدام في ٢ ديسمبر ١٨٥٩ ... وأعدم.

بعد سنتين من ذلك دفعت الولايات المتحدة في حرب الانفصال الضارية ٣/٤ المليون من سكانها بين قتيل وجريح ثمناً لنجاح الفكرة التي كان يحملها جون براون!.

ابن عبد الحميد العمري

المؤرخ المقريزي خصص فصلاً ممتعاً في كتابه « المقفى » لهذا الرجل : ابن عبد الحميد العمري ، إنه أول المغامرين في أرض المعدن أو كذلك كانوا يقولون . وأرض المعدن هي تلك الأرض الممتدة بين مصر والسودان ، والتي كانت لعهد العمري تفيض زمرداً وتبراً . ولتسابق الناس إلى أرض الذهب قصص وحكايا من الحكايا .

وابن عبد الحميد من رجال القرن الثالث للهجرة/التاسع الميلادي ، ولقبه العمري إنما جاءه من انتسابه لعمر بن الخطاب ، فهو عبد الله بن عبد الحميد ويصل في جده الثالث إلى عمر الفاروق . ولد ونشأ في المدينة ولكنه خرج إلى مصر وإفريقية ، وقد نال قدراً من ثقافة عصره ، في الفقه والحديث والأدب والنجوم والفلسفة . وقد حاول المجد عن طريق الشعر ، وامتدح ابراهيم ابن الأغلب بقصيدة نال عليها ألف دينار ... لكن ذلك لم يرض طموحه ، فعاد إلى مصر ٢٤١/٨٥٥ ويبدو أن هناك سمع بتسابق الناس إلى أرض المعدن . كانت فتنة المغامرين تلك الأرض ، في تلك الفترة ، فاشترى العمري ، على عادة التجار في ذلك الحين ، عدداً من الرقيق يستعين بهم في عمليات التعدين وانطلق فحط الرحال في حي من مضر ، أحد الأحياء الكثيرة العاملة على الذهب في تلك الفيافي ، وتزعم بسرعة هذا الحي . وحين عاهدوه على الطاعة ، اعتبرها بيعة منهم . وسار بهم إلى معدن آخر نحو الجنوب ، يعرف بمعدن الشنكة ... والشنكة وعاء الماء . قالوا إن العمري وأصحابه عانوا هناك أشد العطش ، حتى كانوا يشترون الشنكة بدرهمين من التبر . وعرف العمري

أن النيل قريب . وأن أهل النوبة يمنعون أصحابه الورود . فاستعطفهم عبثاً . فلما أبوا . وأعملوا السيف . وأسروا أصحابه . أمر بضرب آلات التعدين سيوفاً ورماحاً . وداهم النوبيين على شرقي النيل . فملأ الأرض بالجثث والأيدي بالأسرى . وفي الليل لحق العرب عبر النهر . وعلى القرب المنفوخة ، بالهاربين إلى الضفة الغربية فأنزلوا بهم هزيمة أخرى حتى بلغ من كثرة السبي أن أحدهم يحلق رأسه فيعطي المزين أجرته رأساً من السبي !! ..

وتوالت المعارك بينه وبين مملكة النوبة . وندب لها الملك ابن أخته أولاً ، ثم ابنه زكريا . ثم غضب على الاثنين لأنهما في النتيجة هادنا العمري . ومنحاه إمكان البحث عن الذهب ، وإمكان ورد الماء . ولكن زكريا عاد فباغت العمري بجيشه يقتل ويأسر وينهب . وحين غادر مواقعه كان العمري وجماعته القبلية في الحضيض ... ولولا أن العمري اشترى بعض الأدلاء ، فورط النوبيين في شلالات النيل بين الجنادل وانقلبت بهم السفن المربوط بعضها وراء بعض لكانت هزيمته كاملة . مع ذلك فقد حاول أن يعاود المقاومة . وقاتل سنة وأكثر من سنة . ثم طوى الخيام بأصحابه وهدم المنازل واتجه إلى الشمال إلى مشارف أسوان ...

كان أحمد بن طولون ، هو حاكم مصر يومذاك . وكان يخشى البدو . ويخشى خاصة أن تقوم إمارة عربية على حدوده الجنوبية رأى ملامحها في مطامح العمري . فأرسل عليه جيشاً يطرده . ومع أن العمري أكد لقائد الجيش أنه إنما يحارب أعداء الله إلا أن الحرب وقعت . وانهزم الجيش الطولوني شر الهزائم . وغنم العمري الغنائم . ثم دخل أسوان ينهب حتى ارتوى . ثم انسحب بكل ما غنم إلى أرض المعدن ! .. وبهذه الثروة والقوة تزعم المنطقة ، حتى لتذكر المصادر أن ستين ألف جمل كانت تحمل له المؤن من أسوان . عدا ما كان يحمله الجلاب في البحر عن طريق عيذاب ...

كانت منطقة المعدن مناجم بعد مناجم للذهب . ولكنه القفر القاتل

وكل ما في الأخلاق الإنسانية من شراسة وأنانية وغدر وطمع كان ينتثر فوق ذلك القفر، ويرتبط بقبضة التبر. المغامرون هناك أنياب وأظافر فقط أما الإهاب البشري فمستعار. ومع أن معظمهم كانوا من المسلمين إلا أنهم كانوا يخلعون جلودهم والقيم، خارج أرض المعدن، قبل أن يدخلوا التيه الرهيب. لهذا لم يكن غريباً أن يخوض العمري بوصفه زعيم المغامرين هناك، معركة البقاء متصلة، حروباً بعد حروب. السيطرة على منابع الذهب كانت تستحق المغامرة!.. وكان العمري من الحكمة بحيث ابتعد عن الحدود الجنوبية لابن طولون. ومنع جماعته من مضر وتميم وجهينه وربيعة والبجة وبني هلال أن يقربوا تلك الحدود. مصر العليا اعتبرها العمري حرماً. غير أن التحالفات سرعان ما تتغير في أرض الذهب. ورأت قبائل ربيعة أنها الخاسرة، أمام هذا الخصم المسيطر النهاب. فاختارت أن تلتصق بقبائل البجة، أصحاب الأرض الأصليين. ومالت البجة مع ربيعة لأنهم من العرب ذوي السلطان. وتألفت من الطرفين جبهة تقاسمت المواقع والمواطن والمعادن. وحين قتل العمري الكثير من البجة... لهجومهم على مصر العليا جاوبوه بقتل أخيه لأمه ابراهيم المخزومي عند عيذاب. وعرف العمري حقيقة مكانه حين طلب من ربيعة إنصافه من البجة أو التخلية بينه وبينها فدافعوه عن الحالين. واستدعى مضر لحربهم، فشذوا عنه. وعبر بنو هلال النيل إلى الغرب. واعتزلت بنو تميم كل أرض المعدن... فلم يبق مع العمري إلا القليل!..

وأدرك العمري أنه الموقف الفصل. لئن سكت انتهى. وما عليه إلا الانسحاب وتقطيع الأيدي ندماً على الذهب كله. فاختار القتال... ومع أن القتل والذبح قد ذهب من الفريقين بالألوف في موقعتين متتاليتين، إلا أن العمري لم يكن يستطيع الانتصار الحاسم... ويذكرون أنه قال يومذاك:

إذا جزى الله أقواماً بعادية ... فلا جزى مضراً عنا بإحسان
أعني الذين بشط النيل مسكنهم ... ما بين قوصٍ إلى ساحات أسوان

كـل الهزائـم كانـت غير فاضحة إلا هـزيمة عثـمـان بـن سعــدان وابن سعدان هو رئيس جهينة ... لكن أيام العمري كانت قد بدأت بالأفول ... يقولون إنه قصد بعد ذلك (الأشهب) رئيس ربيعة، وقتله. ثم تغضب رئيس مضر محمداً بن هرون فتآمر على قتل العمري مع غلامين مضريين من غلمانه تركاه يتخبط في دمه في قفار المعدن التي طالما اهتزت لأخفاف إبله ....

ويقولون إن الغلامين حملا رأسه إلى ابن طولون. فدعا بجماعة شهدوا أنه رأس العمري. فسأل الغلامين: هل أساء إليكما؟ هل منعكما رزقكما؟ هل ارتكب إثماً استحللتم به دمه؟ فلما أجابا بالنفي على كل ذلك. قال: فما الذي دعاكما لقتله؟ قالا: إنها الحظوة عند الأمير. فقال: ذلك والله أبعد لكما مني ومن الله! .. وأمر فضربت أعناقهما .. ثم غسل الرأس وطيبه ودفنه !!

« المحرر » بوليفار

بوليفار ....

هذه الكلمة قد تبدو بالنسبة لي ولك نكرة غريبة . لقد تكون اسم عملة من العملات ، أو اسم بعض الممثلين ، أو بعض الجزر التائهة في المحيط ... لكن ثم منطقة في العالم تضم ست دول وتقرب مساحتها من مساحة أوروبا إذا نطقت فيها هذه الكلمة رفع الناس قبعاتهم تحية . وأحنوا الرؤوس احتراماً وعرفاناً . إنه عندهم اسم فوق مرتبة القديسين برغم مرور مائة وثلاث وستين سنة ونيف على موت صاحب هذا الاسم . تماثيله مزروعة في كل طريق . وسط كل ساحة . عند كل قمة . وفي كل بلد ، لا بد من شارع باسمه . أصداء كلماته ما تزال ترن في الأسماع كعزيف الجن ، وأخبار مغامراته أضحت ، منذ وفاته ، نوعاً من الأساطير ... كان أشبه بالعاصفة يجمع بين منتهى القوة ومنتهى الضعف في وقت معاً . وله النظرة الثاقبة في التنبؤ والقوة الشعرية الشفافة المحيرة ...

سيمون بوليفار إنه اسم للحفظ . فهو إسباني . وقد حرر ست شعوب في أمريكا اللاتينية من نير الإسبان ! ولد في فنزويلا لأب من الارستقراطية الإسبانية سنة ١٧٨٣ . لكن أباه توفي وهو في الثالثة من العمر . ثم لحقته أمه وهو في التاسعة . وحين أرسل في السادسة عشرة إلى أوروبا ليدرس ، كان أساتذته قد أترعوه بالنظريات الغريبة من روسو إلى فولتير وفريق الفكر الحر ... وحين تزوج أخذت الحمى الصفراء زوجته ولم تمض سنة على الزواج . فأغرق أحزانه في السياسة . وكان في سياحة في أوروبا في سنة ١٨٠٥ حين وجد نفسه

يقسم فوق قمة مدينة ساكرو في روما على تحرير بلاده من النير الإسباني !!
كان تتويج نابليون سنة ١٨٠٤ قد هزه هزاً . فأخذت أحلام المجد ترقص لعينيه . لماذا لا يكون نابليون القارة اللاتينية ؟

وجاءت الفرصة حين احتل نابليون إسبانيا الأم وأفلتت مستعمراتها في أمريكا اللاتينية من قبضتها . وبقيت للضباط الإسبان . وغرق بوليفيار في حركة التحرير التي قامت في تلك الفترة في فنزويلا . سافر إلى إنكلترا يقنعها بالمعونة . كان يعتبر نظامها السياسي المثال الذي يحتذى في الحكمة والاستقرار . وعاد ولم يكن بعد شيئاً مذكوراً في السياسة . قال في أول خطاب سياسي له : « لنضع حجر الأساس لاستقلال أمريكا دون خوف . التردد فيه الهلاك » وأعلنت فنزويلا استقلالها سنة ١٨١١ ثم عادت فهادنت إسبانيا . وترك بوليفار بلاده إلى بلدة كارتاهنة في غرناطة الجديدة . (وتحمل اليوم اسم كولومبيا) . وأعلن بيان كارتاهنة قال فيه : « أنا ابن كاراكاس الشرقية . نجوت بمعجزة من انهيارها السياسي والمادي . وجئت هنا ألتحق براية الحرية ... » بعد فترة قصيرة كان بوليفار على رأس جيش يكسب ست معارك ضد فنزويلا ، واحدة بعد الأخرى . ويدخل بعد ذلك كاراكاس متخذاً لقب « المحرر » اعتبره أعلى من لقب الملك ... لكنه قاد البلاد في دكتاتورية رهيبة فوقفت البلاد كلها ضده . حاربته وتحرك ضده الرعاة ، فرسان السهول . فهرب إلى كولومبيا . ومنها إلى جامايكا .

هناك كتب أهم أعماله « رسالة جامايكا » . استعرض فيها أمريكا اللاتينية من شيلي والأرجنتين حتى جامايكا . وقال : « نحن عالم قائم بذاته ، لسنا هنوداً ولا أوروبيين . مع أن فينا قسماً من الطرفين ونعيش بين محيطين من البحار ... »

وفي سنة ١٨١٥ كانت إسبانيا التي تحررت من نابليون ترسل أكبر قوة تعبر الأطلسي إلى مستعمراتها الأمريكية . وركب بوليفار رأسه ولم تعده إنكلترا

ولا الولايات المتحدة بالعون . هاييتي الجمهورية الصغيرة التي تحررت حديثاً من فرنسا استقبلته . لكنه صمم على المقاومة . في السنوات الثلاث التالية . استأجر المرتزقة من البريطانيين والإيرلنديين وأقام قيادته العسكرية في منطقة صعبة اسمها أورينوكو . واتخذ اسم عاصمة تسمى اليوم بوليفار باسمه . طبع جريدة . وطد علاقاته مع القوى الثورية الأخرى . وحد قواه مع قوى ثائر آخر اسمه سانتاندير . وأخيراً قرر الهجوم على غرناطة الجديدة (كولومبيا) وعاصمتها الجبلية بوغوتا . أما مساحتها فتقترب من مليون كيلو متر مربع !! .

المغامرة كانت من أجرأ ما عرف التاريخ العسكري من المغامرات . كان طريق الجيش الذي لا يجاوز ٢٥٠٠ جندي يمر عبر السهول . لكنه عبره في موسم الأمطار الاستوائية . والأمطار قد أحالت الأنهار إلى بحيرات . سبعة أيام ظلوا يمشون في الوحل ، والمياه كأفواه القرب تغمرهم حتى الخصور ... عشرة أنهر ... قطعوا المسافة على هذه الحال في مراكب من جلود البقر . الأرض كانت في طوفان والحرارة الاستوائية كانت تغرقهم في بحر من العرق النتن . الثياب التصقت على الأجسام . والأحذية تعفنت في الأرجل . الجوع أخذ يخرق الأعين . وسقط ثلث الجيش موتى كالذباب . وسقطت الخيول صرعى ... لكن ذلك كله كان لعب أطفال أمام اضطرار الجيش لصعود هضبة كونديناماركا . وتسلق جبال الأند المنتصبة ٤ آلاف متر ، إلى بوغوتا ... واختار بوليفار درباً جبلياً منعزلاً . لكن الرياح الثلجية العاتية كانت تعصف عصفاً في أعاليه . وعاد الموت يختطف الرجال والخيل والهمم . كانت الأنوف تسقط مهترئة من الصقيع . وتتخشب الأيدي والأرجل قبل أن يزحف الموت الزمهريري إلى الأنفاس ! ويزحف معه اليأس الأسود إلى الزاحفين المتسلقين . لكن حين انصب بوليفار ببقايا جيشه من الجبال على الجيش الملكي بعد معارك المطر والريح الصرصر العاتية ، كانت المفاجأة وحدها كافية ليهرب الإسبان بعد قليل من بدء القتال . وحين استعادوا وعيهم كان الوقت قد فات على طرد بوليفار

الذي التحقت به جموع من المتطوعين. وجاءته في تلك المحنة ألوان من الإمدادات والاندفاع المتهور ربح منهم معركة بوياكا سنة ١٨١٩ رغم أنهم أكثر عدداً وعدة ودربة. ودخل بوغوتا بعد ثلاثة أيام! وكانت هذه المعركة الغريبة هي النقطة الانقلابية في تاريخ أمريكا اللاتينية...

هل انتهت بهذا مغامرة بوليفار؟...

بالعكس لقد بدأت!

بـولـيـفـار أيـضـاً

في كولومبيا بلد البن والزمرد وزهرة الأوركيدة والذي يمتد مليون كيلو متر مربع قرب خط الاستواء، في أمريكا اللاتينية. قضيت أربع سنوات. وهناك عرفت الكثير عن سيمون بوليفار البطل المحرر. إن الرجل يحيط بك في كل مكان، في كل ناد، لا تستطيع الفكاك من قصصه. فالقوم مفتونون به. بجرأته التي تزيد عن حد التهور. بمغامراته التي تقرب من الجنون. بآلاف آلاف الأميال التي قطعها على ظهر الحصان. وتقتضي اليوم الساعات الطوال من الطيران. بانتصاراته التي منحت الحرية خلال ست سنوات فقط لستة من بلاد الله! واحدة منها حملت اسمه بوليفيا والأخريات ما تزال تركع لذكراه: البيرو، الأكوادور، كولومبيا، فنزويلا، باناما... حيثما طفت من هذه البلاد واجهتك تماثيله بوجهه المعروق من السل، وبزته العسكرية التي يزركشونها بالأغصان المذهبة، وحصانه... الحصان جزء من مغامراته... حتى حبيبته (مانويلا سانيس) غدت جزءاً من المغامرات ومن قدس الأقداس!

كانت غرناطة الجديدة (التي تسمى اليوم كولومبيا) نيابة ملك لدى الإسبان. ولها السيطرة على الجانب الغربي من أمريكا اللاتينية. وحين غزا بوليفار عاصمتها بوغوتا سنة ١٨١٩ كان غزوه، بما رافقه من شجاعة، وتهور، ومآس، فاجعةً هزت الإمبراطورية الإسبانية. ولكن بوليفار مضى في مهمته حتى النهاية: عين الجنرال سانتانديز نائباً للرئيس. وفي نهاية السنة مثل أمام الكونغرس في المقر الذي اتخذه عاصمة أنغوستورا فاختير رئيساً ودكتاتوراً، ولما كان هدفه منذ أيام قتاله الأولى، توحيد فنزويلا مع غرناطة الجديدة، فقد حث

المجلس على إعلان الدولة الجديدة : جمهورية كولومبيا الكبرى . وأعلنت الدولة . ولو أن قطرين منها فنزويلا والأكوادور كانا ما يزالان تحت الحكم الملكي . ومع أنه كان يعلم أن النصر في النهاية ليس في إمكانه . لكن الهوس والمغامرة والحماسة البالغة جرته . . .

في تلك الفترة بالذات قامت ثورة ليبرالية في الوطن ــ الأم . واعترف الملك الإسباني بها . ووجد الحكام الإسبان في أمريكا ، أنهم إنما يدافعون وظهرهم مكشوف . لماذا يتشبثون ؟ وعم يدافعون ؟ واستطاع بوليفار ضمن هذا الجو من التخاذل أن يقنع الحاكم الإسباني لفنزويلا (موريلو) بعقد هدنة لستة أشهر . وحين انتهت فتحت معركة كارابوبو سنة ١٨٢١ أبواب كاراكاس أمام بوليفار ! وأضحى وطنه الأصلي حراً واجتمع مجلس ، وضع دستوراً اتحادياً وانتخبه للرئاسة !

لم يكن بوليفار راضياً عن الدستور لأنه ليبرالي أكثر مما يجب . لكن أحلاماً أخرى كانت تعمر جبهته . وتعصف به . ترك البلاد للجنرال سانتاندير . وأخذ الإذن ليتابع معاركه العسكرية . أين ؟ في الأكوادور ! كالعاصفة المفاجئة انقض على هذه البلاد الجبلية الاستوائية . وقبل أن تنتصف سنة ١٨٢٢ كان قد دخل عاصمتها كيتو ! تعاون مع الجنرال أنطونيو خوزيه سوكره . وفيما شغل بوليفار الإسبان على المداخل الصخرية « الشمالية » والدروب التي تزحف فيها الخيل على بطونها ، مشى سوكره من شواطئ المحيط الهادي صعداً إلى كيتو . في بيشينشا ربح المعركة . وتحررت الأكوادور من النير الإسباني . بعد ثلاثة أسابيع كان بوليفار يسجل دخوله إلى كيتو .

كان « المحرر » بوليفار غارقاً إلى الأذقان في مشاكل ما بعد النصر ، حين عرف الحب . في كيتو وهو على أبواب الأربعين التقى لأول مرة بالفتاة التي رافقت سنواته الأخيرة : مانويلا سانيس . كانت المرأة المثالية التي يمكن أن

يقترن اسمها باسم هذا العسكري الرقيق الصلب كالسيف! كانت مزيجاً من الفتاة المسترجلة والرقيقة الرقيقة معاً. ثورية كالشعلة الواقدة. وذات حب عنيف لاذع كشمس خط الاستواء ولم تفارقه لا في ميادين المعارك ولا في قصر الرئاسة...

هل انتهت أحلام هذا المغامر؟

لم تنته بعد ولم يشغلها الحب العارم. صحيح أنه حرر كل الأراضي الكولومبية. واعترفت بذلك الولايات المتحدة. لكن الإسبان كانوا ما يزالون إلى جنوب الأكوادور في البيرو. والبيرو كانت قضية عاناها المحرر الآخر لجنوب أمريكا سان مارتن. الذي دخل ليما عاصمتها. وأعلن استقلالها. فكمن له الإسبان في الجبال. ولم يكن في استطاعته القيام لهم، فطلب المدد من بوليفار. والتقيا في ميناء الأكوادور: غواياكيل!.. لكن محادثات الاثنين ظلت سراً غريباً لم يعرفه أحد... على ماذا اختلفا؟ ليس يعلم أحد! كان ثمة تبادل شحيح في المودة بين الاثنين. ولعل بوليفار المغامر اللامع الطموح الأناني الذي يعتقد أنه الابن الذي اختارته القدرة الإلهية لتحرير أمريكا اللاتينية، اصطدم بصمت سان مارتين وهدوئه وتواضعه. وحين عاد سان مارتين من غواياكيل استقال من ليما. وذهب رأساً إلى المنفى. لقد فشل وأطلق يد بوليفار في البيرو...

بعد سنة من ذلك كان بوليفار يدخل ليما. ومع أن وضع الإسبان في الجبال كان يعتبر غير قابل لأن يتزحزح، إلا أن المغامرات الناجحة علمت بوليفار أن يغامر أكثر فأكثر. جموع الخيل والبغال والرجال التي اجتمعت كونت جيشاً صعد به الجبال. ورفده الجنرال سوكره إياه فإذا به يربح معركة جونين ثم. إذا بنائب الملك الإسباني يخسر المعركة ويستسلم بكل جيشه... القطعة الأخيرة الباقية للإسبان في قلب القارة سقطت في سنة ١٨٢٥ وأخذت لنفسها اسم بوليفيا على اسم المحرر بوليفار.

بلغ بوليفار الآن الذروة من المجد، ومن المغامرة. سلطته تمتد من البحر الكاريبي إلى حدود الأرجنتين. لكن العسكري الناجح كان إدارياً فاشلاً. كان يريد مجلساً لكن دون سلطة. وانتخابات لكن للطبقة الأرستقراطية. وتكالبت عليه الأمراض فأقعدته أشهراً بعد أشهر.... ومع ذلك كان يحلم... يحلم بجمع أمريكا اللاتينية كلها في كتلة واحدة. ووضع المشاريع لذلك. طلبوا إليه حمل التاج لكنه ظل يفضل لقب «المحرر» على «سيمون بوليفار الأول» !.

وانتهى الحلم الكبير فجأة، ليبدأ الفشل السريع. قامت الحرب الأهلية بين فنزويلا وكولومبيا. فرحت البيرو حين غادرها بوليفار بعد حكم ثلاث سنوات. ولم ينفع تدخله لإنهاء الفتن. وكان يظن أن البلاد كلها تعترف بسلطته وما لبث أن عرف الحقيقة المرة، حين هجم جماعة من الأحرار على قصر الرئاسة ليقتلوه، لولا أن أنقذته الحبيبة مانويلا. ثم ثار عليه واحد من أقرب جنرالاته: الجنرال كوردوبا وأعلنت فنزويلا الانفصال عن كولومبيا. وزادت عليه وطأة الأمراض...

كان كل شيء ينهار أمامه. في وسط كل تلك الانهيارات قرر ترك البلاد واللجوء إلى أوروبا... وعرف وهو بعد على الساحل أن الجنرال سوكره قد قتل بدوره ! .. ولم يمهله المرض ليأسى أو ليفكر. لقد ذهب السل بآخر أنفاسه سنة ١٨٣٠ ورجعت أحلام بوليفار إلى التراب !...

مجاهد العامري

كان أسطورة من أساطير البر والبحر قرابة خمس وثلاثين سنة .

هل سمعتم بمجاهد العامري؟ تفتش عنه بالميكروسكوب في التاريخ الإسلامي فلا تكاد تجده . ومع ذلك فإنه كان رعب الحوض الغربي للبحر المتوسط . مجرد ذكر اسمه كان يدعو أساطيل بيزا وجنوه ونابولي لنشر الأشرعة والهرب ... وكان هذا الاسم ينطق في مختلف الموانئ على ستة عشر شكلاً . ويفهم البحارة والقراصنة وتجار البحر أنها جميعاً تعني ذلك الغول المرعب : مجاهداً العامري !!

على أن مجد مجاهد العامري لم يبن على الماء . عناق الموج والأشرعة والمجاديف كان بعض هواياته . فالرجل طود من أطواد التاريخ الإسلامي عز نظيره . وإن كان الأوروبيون يجعلونه قرصاناً وشيطاناً من شياطين البر والبحر . ومن الفاتكين الفاتكين . وينسجون حوله هالة من الأساطير والأعاجيب .

كان ذلك منذ ألف سنة . والمكان في الأندلس ، في شرقي الأندلس . في مرفأ دانية المطل على البحر المتوسط . أصل الاسم من ديانا ربة الصيد لدى اليونان والرومان . ولكنها منذ ثلاثة قرون قبل ذلك كانت مرفأ لصيد القراصنة الغربيين . كانت الحملات البحرية تعد فيها . موقعها الاستراتيجي بين جبل قاعون والبحر ، وسورها المتين ، وقلعتها ، ونهرها ، كان يجعل منها دار صناعة الأندلس ! ... ولكن المدينة وقعت منذ مطلع القرن الخامس للهجرة/١١م في المصيبة التي وقعت بها الأندلس وصارت في أيدي ملوك الطوائف . تمزقت

البلاد قطعاً وممالك تزيد على العشرين وكان من نصيب دانية أن يحكمها مجاهد العامري ! ..

من الرجل ؟

ابن خلدون يعطيه اسم مجاهد بن يوسف بن علي ، وهذا يعني أنه مسلم حتى الجد على الأقل . لكن المصادر الأخرى تذكر أنه رومي أو صقلبي أو أفريقي ... وكما يضيع أصله ، تضيع نشأته بين الأقاويل . كل ما يعرف عنه أنه كان طفلاً في بلاط المنصور بن أبي عامر في قرطبة . وقرطبة عروس المدائن في تلك الفترة . كانت أكاديمية للفنون والعلوم وللشعر . وقد غرق مجاهد في هذا الجو حتى النشوة . وأضاف إليه الدربة على الفروسية والقتال . وهكذا كان من بعض محفوظاته القرآن ومن بعض ثقافته علوم الدين ، ومن بعض متعه الآداب والشعر ... وقد وجد فيه المنصور بن أبي عامر الرجل الذي يحفظ ثغر داينة فكانت له ٤٠٢/١٠١٢م .

وسرعان ما بدأ تمزق الأندلس بين ملوك الطوائف ، ووجد مجاهد نفسه ، رغم كل الولاءات التي يحملها للخليفة هشام في قرطبة وللمنصور بن أبي عامر ، مطلق اليد في الثغر ، مطلق اليد في الأسطول الراسي فيه ، وفي القوى العسكرية التي تحت يده ... كان ذلك وحده كافياً لينطلق المغامر في بردة مجاهد . وتترسم الأحلام الكبرى له خطط الغد . ولم يرجع مجاهد بأحلامه وراءه إلى الأندلس يجمعها . ولكنه أطلق هذه الأحلام أمامه فوق الماء . عمل النجارون وصانعو الأشرعة ثلاث سنوات في صنع سفنه الجاريات في البحر كالأعلام وفي دق الأسنة وتكديس السيوف والحراقات ...

كانت هذه أول مرة يفكر فيها أندلسي في السيطرة البحرية على الحوض الغربي للمتوسط . حاولت ذلك من قبل قوى الأسطول الأغلبي في تونس فابتلعها غزو صقلية ، وقوى الأسطول الفاطمي فاستغرقها النزاع مع خلفاء الأندلس ... وفيما تكاثرت الترسانات الغربية على السواحل الإيطالية

والفرنسية، وقويت أساطيلها، انقسم الأسطول الأندلسي بين دول الطوائف بين أصحاب بطليوس وأشبيلية والمرية ودانية وبلنسية وفرخشنبط. لكن مجاهداً قرر المغامرة في المياه... كانت جزر الباليار مجموعة من الزمرد الأخضر في المتوسط:

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس

كذلك يقول عنه الشاعر ابن اللبانة يومذاك. وقد غزاها العرب أكثر من مرة. غزاها موسى بن نصير ٨٦/٨٤ ثم غزاها العرب بعد مائة سنة. ثم عادوا إلى غزوها سنة ٢٠٠ و٢٣٤ ثم فتحها عصام الخولاني بأمر الخلافة الأموية سنة ٩٠٣/٢٩٠م... لكنها في مطالع القرن الخامس كانت قد استقلت. ورأى مجاهد أن توسطها يعطيه المكان الاستراتيجي الأهم للسيطرة على غربي المتوسط، وعلى تجارته، والسفن التي تملؤه. فبدأ بها. وطوق مجاهد الجزر بالسفن سنة ٤٠٥ /١٠١٥: يابسه، مينورقة، ميورقة، ونزلت حامياته في بالما.

لكن احتلال هذه الجزر لم يكن أكثر من خطوة على الطريق. تجربة لقواه في البحر. مناورة ما إن نجحت حتى توجه مجاهد، ولما تمض خمسة أشهر، إلى الجزيرة الكبرى: سردينية. إنها عديلة صقلية ومركز السيطرة على ما بين جنوب أوروبا كله، وشمالي أفريقيا. ١٢٠ سفينة، ألف حصان، ثمانية آلاف جندي. قالوا إن زوجته المسيحية أم ولده الصغير علي حاولت أن تثنيه عن هذا الغزو استرحمته، فلم يأبه لدموعها. كان يريد تحويل البحر الأبيض الغربي بحراً إسلامياً. والجزيرة غزيت من قبل أكثر من مرة. فاجأتها الغزوات العربية موجات كان آخرها غزوة يعقوب بن إسحق ٩٢٤/٣٢٣ بأمر الخليفة الفاطمي المنصور. ولم يثبت العرب هناك. فالشواطئ مستنقعية والموانئ قليلة، عرضة لصخب الموج. والسكان يعتصمون بالجبال. ومع ذلك فقد أرخى أسطول مجاهد الأشرعة عند ميناء كاكلياري... وربح المعركة الرهيبة التي دارت

والتي قتل فيها مالوت قائد السردانيين ! ... واحتل معظم الجزيرة ونفذ إلى المناطق الجبلية محتلاً المعاقل ثم أخذ يقيم المزيد من الحصون . وشرع في بناء مدينة واسعة نقل إليها أهله وولده ... كان يعتقد أن الاحتلال نهائي !

وعبر البحر إلى الشاطئ الإيطالي . بعد أن احتل جانباً من كورسيكا . فأخذ مدينة لوني سنة ١٠١٥ ثم وصل بيزا . فباغتها في الليل . وأحرق حياً من أحيائها . وكاد يستولي على المدينة لولا أن سمعت اللغة الغريبة والضوضاء امرأة فأنذرت المدينة . ودخلت التاريخ بهذا الإنذار : اسمها شيوسيكا غيزموندي . كانت المنطقة تحت النفوذ البابوي فوقف البابا بنديتو الثامن من وراء جيوش بيزا وجنوة التي تحالفت ترد الاحتلال . وكانت بعد ذلك معركة ملأت السهل والشاطئ والنهر جثثاً .. وانسحب مجاهد إلى سردينيا ... ليواجه بعد قليل على المياه الأسطول الجنوي البيزي المتحالف ... ومع أنه أمر بالانسحاب لاجئاً إلى مرسى يحسبه أكثر أمناً ، فإذا بالعواصف تنتهب الأسطول الإسلامي من كل جانب ، تضرب بالمراكب بعضها ببعض أو تلقيها على الشواطئ الصخرية . ولا عمل لأساطيل العدو إلا الأسر لمن فيها أو القتل ... حتى جعل مجاهد يبكي بأعلى النشيج ... وإذا لم يستطع النجاة من مراكبه سوى خمس مراكب فقط فقد سقط في الأسر نساء مجاهد وبناته وولده علي الذي أهدته بيزا إلى إمبراطور ألمانيا ! ...

وفيما عاد مجاهد كسير الجناح إلى دانية ، كانت أسطورته تتضخم لدى بيزا وجنوة والإيطاليين . وتعددت الغزوة العربية فصارت أربع غزوات . وزعموا أنهم أسروا مجاهداً كما زعموا أنه تنصر . وأن البابا عينه ملكاً على قرطاجة ... لكن مجاهداً نفسه كان يتذكر مغامرته هذه فيما بعد طول حياته ... ويبكي !

سان مارتين

خوزيه سان مارتين :

يلقبونه بالمهندس الأول لاستقلال جنوب أمريكا اللاتينية، مع أنه لم يعرفها، ولم يعش بها سوى ست عشرة سنة من عمره الذي امتد حوالي ٧٥ سنة منها ٦ سنوات من الطفولة. يقدسونه في الأرجنتين مع أنه عمل معظم الوقت في البيرو. يعلمون أولادهم في المدارس. بطولته في التحرر من الإسبان مع أنه جندي إسباني حتى العظم. إنه خوازيه سان مارتين !

ولد حوالي ١٧٧٥ لأب جندي محترف في مركز تبشيري بين هنود الغواراني في أقصى شمال الأرجنتين. لكنه عاد مع أسرته إلى إسبانيا وهو في السادسة. وتربى في مدرسة النبلاء في مدريد، حتى الحادية عشرة. ودخل الجندية كأبيه فظل أكثر من عشرين سنة بعد ذلك ضابطاً على الولاء للعاهل الإسباني، يقاتل من أجله في وهران، ١٧٩١ ضد العرب، وضد البريطانيين ١٧٩٨ الذين أسروه مدة تزيد على السنة، وضد البرتغاليين في حرب أورانغ . . .

وفي سنة ١٨٠٨، وعمره أكثر من ثلاثين سنة، جاءت نقطة التحول في حياته. كان نابليون قد احتل إسبانيا بالحيلة. ثم أجبر ملكها شارل وابنه فرديناند على التنازل عن العرش. ثم عين أخاه جوزيف للتاج الإسباني . . . وثارت الوطنية الإسبانية حتى أعماق القرى. وخدم سان مارتين سنتين في لجنة إشبيلية التي كانت تحارب لمصلحة الملك المخلوع فرديناند السابع. في معركة بابلين ١٨٠٨ ثم في معركة البويرا سنة ١٨١١ برز سان مارتين وترفع. لكنه

طلب الإذن له بالذهاب إلى ليما عاصمة نيابة الملك في بيرو في أمريكا اللاتينية ... وحين نال الإذن سافر عن طريق لندن إلى بونس أيرس التي كانت يومذاك مركز المقاومة في جنوب أمريكا للجنة إشبيلية وللملكية ...

يومذاك بدأت المغامرة الكبرى لسان مارتين التي امتدت عشر سنوات فقط . ثم انقطعت . كلف سنة ١٨١٢ بتنظيم جيش مدفعي ضد الملكيين الإسبان الذين كانوا يتمركزون في ليما ، ويناوئون الحكومة الثورية في الأرجنتين .

ما الذي غير موقف الرجل وغير ولاءه الذي عاش عليه حتى الآن ؟ يقولون إن إنكلترا ، وبالتحديد إن الأيرل جيمس داف الإنكليزي ، هو الذي جنده في وكالته حين كان يحارب في إسبانيا ، وحوله إلى المبادئ الحرة ! .. المؤرخون الأرجنتينيون يصرون على أنه ضحى بمنصبه في إسبانيا ، لأن نداء الأرض التي ولد فيها كان أقوى في دمه ولأنه استجاب للنداء ! ... الإسبان في شبه الجزيرة الأيبيرية كانوا يشكون في مثل هؤلاء المولودين خارجها . وينبذونهم بلقب كريويو Griollo (فلاح) ويتهمونهم بالثورية !

أول المهمات التي عهد بها إلى سان مارتين أبرزته . كسب معركة سان لورنزو ١٩١٣ على ضفاف نهر البارانا . ولهذا أرسلته حكومة بونس أيرس إلى توكومان في البيرو نجدة للجنرال بلغرانو ، ثم ليحل محله . وكانت قوى الملكيين تضغط عليه حتى الاختناق . وأدرك سان مارتين حقيقتين :

الأولى :

أن من الصعب حماية الأرجنتين (ريودو لابلاتا) ما دامت ليما في أيدي الملكيين .

الثانية :

أن من المستحيل عسكرياً الوصول إلى ليما عن الطريق العادية التي تخترق بوئيفيا ...

وهكذا وضع خطته التي كانت مغامرته الكبرى لتحرير أمريكا اللاتينية وكانت ضربته الكبرى في وقت واحد...

طوع أولاً الكاووشو، هؤلاء الفرسان الرعاة الذين لا يطوعون. نظمهم، دربهم على أن يكونوا قوة قتال متكاملة. وقد عينوه حاكماً على مقاطعة مندوسا الشمالية التي تتحكم في طريق المرور إلى بيرو عبر جبال الأندس. وعقد الصلات مع الحكومة الثورية في شيلي لكي يستطيع غزو بيرو عن طريق البحر. لكن سوء الخطة دمر مخططاته. فقد استطاع الملكيون احتلال شيلي وتقويض حكومتها الوطنية. فانقطع عليه طريق البحر. حتى (برناردو أو هيغنز) محرر شيلي هرب إليه في مندوسا. ووجد سان مارتين نفسه أمام حل وحيد: أن يخترق جبال الأندس لاسترداد شيلي. ولم تكن الأندس جبالاً فقط ولكنها جدران بعد جدران من الصخور الزرق تبلغ السماء. ومهالك كأفواه الشياطين، وأودية تهرب فيها الأصداء، فلا ترجع، وثلوج تحتضن الموت الأبيض ومهاو مائية يرتجف منها الصخر، ورياح للرعب لست تدري أنى تعصف؟ وقمم تعلو بعد قمم حتى ينقطع الأفق!...

واستطاع سان مارتين أن يخدع العدو، ويجعله يقسم جيشه على المعابر الممكنة. فيما اخترق بجيشه أربع سلاسل من الجبال عبر ممرات ترتفع ثلاثة وأربعة آلاف متر. قضى عشرين يوماً في ذلك (بين ١٨ يناير و٧ فبراير ١٩١٨) يسير بالمدافع والخيل والمؤن. والرجال في أهوال الصخور. هذه المغامرة وضعت سان مارتين في صف هانيبعل القديم، وفي مستوى نابليون الأخير، اللذين اخترقا جبال الألب... وهزم الملكيين في معركة كاساس دو شاكوبوكو. ودخل سانتياغو عاصمة شيلي. ورفض قبول الحكم في تلك البلاد، لأنه لا يريد أن يحرفه شيء عن هدفه: احتلال ليما الملكية! ولهذا بقي سنة ينظف البلاد من الملكيين، بعد أن هزمهم في المعركة الأخرى في مايبو.

ويعد الأسطول البحري والجيش . وقد أتم ذلك رغم قلة المال مستخدماً سفن التجارة في الحرب . وانتقل بقواه إلى بيرو . كان ميناء (كاباو) مغلقاً قويَّ الدفاع ، فنزل في جنوبه . وكانت حامية ليما على أتم الاستعداد ، فتركها سنة كاملة تستهلك قواها ، وتيأس من نجدات ملكية تأتيها ، فتنسحب إلى الجبال ... وعند ذلك دخل ليما وأعلن استقلال بيرو سنة ١٨٢١ وصار سان مارتين حامي البلاد !

لكن الرجل كان يعيش أخطر لحظات مغامرته . فقد تخلت عنه حكومة بونس أيرس بعد أن خالف أوامرها . وكان الملكيون يتربصون به في الجبال . ولم يكن واثقاً من ولاء البيروفيين ... حتى ضباطه كانوا يظنون به ظنون الملكية والدكتاتورية وقرر أن يستنجد ببوليفار بطل التحرير في كولومبيا الكبرى . والتقى به سنة ١٨٢٢ اللقاء الغامض الفاشل في الأكوادور . وعاد سان مارتين من اللقاء رجلاً محطماً ، مريضاً مليئاً باليأس ... استقال من جميع مناصبه وانسحب إلى المنفى الذي اختار مع ابنته في باريس وبروكسل وبولون ...

ظل بعد ذلك حتى مات ١٨٥٠ يرقب ما يجري في أمريكا اللاتينية ويتحسر إن لم يكن يبكي !

علـى الأمـازون

هل تعرف بقعة في العالم يجتمع فيها ثلث غابات الأرض، و ١٧٠ ألف مليار غالون من الماء كل ساعة، وأنواع من النبات والحيوان ليس كمثلها أنواع في كافة أنحاء الدنيا ؟ ..

هل تعرف أنهار حوض الأمازون ؟! .. الحوض الذي ما يزال رغم كل فتكات البشر، والشركات الاحتكارية، والجشع النهم، الحوض البكر الغامض المغرق في غموضه، والذي يحتفظ بمعظم أسراره ووحشيته ... القرى النحاسية التي تنتشر هنا وهناك على ضفاف النهر المتباعدة، لا تدري إحداها بالأخرى. فلا ضفاف هناك على الأرض الهشة، ولكن بحار بعد بحار من أغصان الشجر، وعجائب الطير، وتسلل الأفاعي، وهسيس الحيوان والحشرات من كل نوع وحجم. النهر نفسه وحل كالماء. أو ماء كالوحل. يجتمع فيه ١١٠٠ رافد من الأنهر. اكتشف منها بواسطة الأقمار الصناعية، منذ عقدين من السنين رافد جديد، غير معروف، أكبر من نهر الفرات. وتحمل يومياً إلى البحر مليونين وخمسمائة ألف طن من الطمي، في تدفق يزيد في أواخره على ٣٥٠ كم في العرض، ويشكل ٢٥ مرة من تدفق نهر النيل، وفيه من أنواع السمك عشرة أضعاف ما في أنهار العالم مجتمعة! ... وللغابات بألوانها الرمادية هناك موسيقاها الرهيبة المزلزلة. إنها إيقاع الأبدية. وإنها لتختلط في وحشتها المرة بالجزر الخضراء الطافية فوق المياه وبتلك الروافد المائية التي تطل وتختفي، وبألوان المياه المتقلبة، فلا تستطيع التمييز بينها في ضوء الفجر، وبين مياه النهر وسمرة الغاب البعيد!

على هذا النهر كتبت ومحيت، ثم كتبت ومحيت آلاف المغامرات. وعليه انطلق وغاب، وعاش، ومات، وغرق، وبكى آلاف المغامرين... وكانت تعمر شرايينهم عشرات الشياطين. كانوا يغرقون في هذا البحر الواسع كل تلك الشياطين. لعل أول هؤلاء كان فرانشيسكو دي أوريلانا... المغامر الأعور!

كان ذلك في عصر الاكتشاف، العصر الذي عرفته الإنسانية منذ أربعة قرون. يمكنك أن تسميه عصر الدهشة والجشع. أو عصر الدهشة الكبرى والجشع الأكبر... فجأة وخلال فترة قد لا تبلغ القرن عرف الإنسان عن الأرض، والناس، والثروات، ما لم يكن أبداً من قبل، يعلم. تضاعفت الدنيا أمامهم عشر مرات. كانت هذه المعرفة أولاً من نصيب الرجل الأوروبي...

في تلك الفترة انفجرت أوروبا انفجاراً بالمغامرين من كل صنف ولون. محاربون، بحارة، قسس، تجار، قطاع طرق ولصوص. مشردون يبحثون عن اللقمة. كلهم كانوا يلقون أنفسهم للمجهول!.. كلهم كانوا يغامرون. انفتح عليهم فجأة عالم فسيح هائل. فأقبلوا يعبون منه. يفترسون. يقتلون. ينهبون في نهم الذئاب. يغرقون فيه حتى ما فوق الأذقان. هوس كالجنون كان يضعهم على الأشرعة. يطلقهم في جحيم الغابات. على المراكب في الأنهر، على الخيل في الوديان المنقطعة، على أكتاف الصخور.

في تلك الفترة، اكتشف الأوروبي النصف الثاني من الأرض: أمريكا. اكتشف الدوران حول أفريقيا للوصول إلى الشرق المسحور، جنة التوابل والأفاوية. دار حول الأرض عرف أنها كروية. وإن المسير إلى الغرب يؤدي إلى الشرق. عرف التبغ ونشره في العالم. عرف الذرة. كشف بشراً لم يكونوا لديه في سجل أولاد آدم. وقع على كميات من الذهب أثارت فيه الجنون. خضعت

له ملايين الزنوج يسوقها عبيداً عبيداً في المزارع الأمريكية البكر. ولكن الأوروبي ظل مع ذلك، يزداد جشعاً وجنوناً.

على نهر الأمازون الرهيب كان أول من أطل من الأوروبيين البيض قارب عادي عليه فرانشيسكو دي أوريلان الأعور، ومجموعة من الإسبان. استدارت عيونهم من الدهشة والرعب وهم يجدفون خارجين من مياه النابو إلى عرض النهر الأعظم. حسبوا أنفسهم قد دخلوا عرض المحيط. فهذه هي الأمواج، وصفع الأشرعة، والأفق الأسمر اللانهائي. كانوا يلهثون، مع زعيمهم فرانشيسكو وراء الذهب. كل الناس كانت تتحدث يومذاك عن ذهب إلدورادو (البلد الذهبي) الذي لم يره أحد. والكل كان يبحث عنه. فرانشيسكو وجد بدلاً من الذهب المياه بعد المياه. كانوا قد أمضوا أسبوعاً على الجوع والضياع. لأن الجوع مزق معدهم ورعب الضياع. وأدركوا أنهم الآن في سجن المياه الأكبر والغابة اللانهائية. زهدوا في الذهب. واندفعوا على أول شاطئ وجدوه قضموا كل أنواع النباتات. وتذوقوا خشاش الحيوان. كانوا عيوناً غارقة تبحث عن الطعام. حتى إذا وجدوا مجموعة بشرية بدائية انقضوا عليها فاتكين. وتوقف الجوع فترة ليعاودهم رعب الضياع! قضوا في الغابة والنهر سبعة أشهر ليسلمهم الجوع إلى الضياع ثم يسلمهم الضياع إلى الجوع. وحدها سكاكينهم والغدارات كان عدتهم في نثر الجثث، وسلب سكان الغابة غذاءهم. يوم وصلوا أخيراً بعض سواحل فنزويلا راحوا يروون ألف رواية خيالية عن مغامراتهم!... كتبوا عن الثروات والذهب والخصب والمدن البيضاء والفراديس الخبيئة. وشهدت مياه الأمازون موجات من المغامرين يضربون بالمجاديف والأشرعة ولعابهم يسيل وراء الذهب!. حتى المبشرون الجيزويت ركضوا يبحثون عن عالم جديد، هناك وراء جدران الخضرة، ينتظر تعصبهم الأعمى!.. كانت حصيلة هذه الهجمة ١٤ مليون قتيل من السكان الأصليين أبادهم القادمون الجدد... ولا شيء من الذهب...

بعد قرن وبعض القرن من ذلك سرت عبر الأمازون كله هزة أخرى . وتدفق على مياهه نوع آخر من المغامرين البيض جذبتهم شجرة الكوخوس . الشجرة الباكية . ولم تكن سوى شجرة المطاط . مغامر فرنسي اسمه لاكوندامان يقولون إنه اكتشفها سنة ١٧٣٦ وأرسل بعينة منها إلى باريس ليتبين جدواها ! .. وسرعان ما طفا على الأمازون « بارونات المطاط » يدعمهم المال والجند والتبشير . وعاد جنون المطاط يفترس المغامرين والسكان . وفيما تضخمت ثروة البارونات التضخم الهائل ، كان جامعو الدمع عن الأشجار الباكية يمزجونه بدمعهم والدماء . كان الحرق وتقطيع الأوصال أهون ما يصيبهم إذا تهاونوا في تقديم الحصص اليومية المفروضة ... محطات الشركات كانت مزروعة على الشاطئين وعملاؤها المنتثرون كان يأكلهم أحياناً النمل المفترس ...

أنقذ المنطقة أن الشجرة الباكية هربت إلى الملايو وسيلان . بأعداد كبيرة . واستغنى البارونات عنها شيئاً فشيئاً . فلم يبق لأحفاد المغامرين من صائدي الذهب أو المطاط سوى القرى الخشبية المائية والرطوبة القاتلة وأكل حشائش الأرض ...

مغامرو الأمازون اليوم متواضعون . يقطعون الخشب . وينشؤون المزارع . فهل انتهى جنون المغامرة هناك ؟ .... لست أعتقد . إن الأمازون منجم ما يزال يعد بالكثير !

أبو عبد الله الشيعي

دخول جماعة سرية مغامرة. والعمل ضمن مخططاتها وتجنيد الأنصار فيها مغامرة أكبر. أما محاولة إقامة دولة فمشروع بالغ الطموح. ولعله اخترق جباه الكثير من المغامرين. لكنه لم يتحول إلى حقيقة إلا لدى بضعة نفر.

من هذا النفر هذا الرجل: أبو عبد الله الشيعي. واللقب اكتسبه من العمل في الدعوة السرية، للأئمة الفاطميين الاسماعيلية. قالوا إن اسمه الأصلي هو الحسن بن أحمد بن محمد الصناعي، من صنعاء اليمن. ولكنه عرف أيضاً بالمعلم. لأنه كان يعلم المذهب. وبالمحتسب لأنه ولي الحسبة في بعض أعمال بغداد. وبالصوفي لأنه كان يؤثر الأردية الخشنة ومرقعات الصوف... لكن هذه المرقعات كانت تضم شخصية مغامر مدهش...

أتى اليمن يتدرب في الربع الأخير من القرن الثالث/٩م. على يد الداعية هناك ابن حوشب. ولكن هذا الرجل أراد التخلص منه. فدفعه إلى بلد بعيد. أشار عليه أن يذهب إلى المغرب. وبين اليمن والمغرب، في تلك الأيام، أهوال من السفر ومن الشقاء المنهك عبر البوادي، ومن صفق النعال. ولكن أبا عبد الله مضى إلى المغرب.

عرج في الطريق أولاً على مكة. وبحث عن جماعات المغاربة فجاور بعضهم. ورأى قوماً من قبائل كتامة، يتحدثون بفضائل آل البيت فشاركهم، وحدث أفاض. وعاود اللقاء بهم. وكرر ذلك أياماً، ثم كرر حتى

إذا افتتنوا بحديثه، أظهر أنه يريد فراقهم. وسألوه أين يقصد؟ فقال: مصر! .. فسرهم أن يرافقوه إليها.

كانت هذه الرحلة بين مكة والفسطاط كافية لكي يزدادوا به تعلقاً ومحبة. وليروا فيه الشيخ الورع الزاهد. لكنه قطع الرحلة وهو يسألهم عن أحوال بلادهم. وعن طاعتهم لأميرهم. وعن مدى قوتهم ... وعرف أبو عبد الله أنهم ناقمون على الأمير الأغلبي العباسي في القيروان، نقمتهم على الأئمة الخوارج في تاهرت. وأن نفوسهم على أسنة الرماح! ... وكان هذا هو نجاحه الأول.

وفي مصر أعاد أبو عبد الله تمثيل دور المودع المفارق. قال إنه لا غرض له في مصر، ولكنه طلب العلم فحسب. فتركهم يلحون عليه أن يرافقهم إلى المغرب لأنها أنفع وأطوع. ولأنهم أضحوا يعرفون له حقه ومكانته، حتى قبل ... وكسب أبو عبد الله النجاح الثاني والأهم في مغامرته: أن يصل إلى المغرب ومن حوله جماعة تؤمن به وتحميه.

وفي الطريق إلى المغرب بالغ أبو عبد الله في التقى والزهد ... لأنه كان يريد الوصول. وقد أضحى في أعين الجماعة نوعاً من أولياء الله. وكذلك كان، وتلقته قبائل كتامة، وهم في شرقي الجزائر اليوم وتناقشوا في استضافته. وسألهم ــ كما يقولون ــ عن فج الأخبار، وهو فج في الجبال منيع كثير الخير، فدلوه عليه. فنزله واتخذ لنفسه دار هجرة، في موقع أيكجان منه، حيث يجتمع الحجاج من الأندلس وشمال المغرب ... ولم يكن الكتاميون على التشيع، ولم يكونوا بخاصة على التشيع الاسماعيلي الفاطمي. ولكنهم قبلوا الدعوة كيداً للحكام الأغالبة والأئمة الخوارج الرستميين على السواء. وكان هذا هو نجاحه الثالث. فالقوم محاربون أشداء وناقمون وقد جاءهم الرجل بعقيدة تجمعهم. وبقضية تستنفذ طاقاتهم الحربية الحبيسة ...

وأخيراً أفصح أبو عبد الله عن غايته. كشف سره الخبيء لأنصاره. أعلن قرب ظهور الإمام المهدي المخلص. وانتظار المهدي المخلص لون من ألوان الأمل طالما أغرى المتألمين الناقمين. وأعلن أبو عبد الله أنه يريدهم على الحرب معه. ولم يكن صعباً عليهم القبول منه بما تهوى الأنفس. وبدأت مرحلة الحروب: كان الأغالبة هناك يحكمون، منذ أكثر من مائة سنة، أتباعاً اسميين لبني العباس. وأرسل عاهلهم ابراهيم الثاني إلى أبي عبد الله أولاً رسالة فيها الوعد والوعيد. فلما ردها بكتاب يستصغر من شأنه ويتحداه، كان القول الفصل للسيف. وهزمت حملات الأغالبة سنة ٢٨٧ مرة ومرتين وثلاثاً. ثم بدأ أبو عبد الله بالهجوم. وأخذت جموعه القبلية تنقض على المدن والقرى «كجلمود صخر حطه السيل من عل». كالقضاء الحاسم. كالصقور... ومال حتى بعض وزراء الأغالبة مع هوى أبي عبد الله. وفيما ازداد إيمان الناس بأن ظهور المهدي قد آن أوانه، صارت معظم أرض الأغالبة تحت حكمه. وفيما كان يقترب شيئاً فشيئاً من القيروان، كان سلطانه على أصحابه يزداد بما يظهر من الورع والتعفف عن المال الحرام، والامتناع عن العنف، وتزايد قناطير الغنائم بين يديه...

بعد سبع سنوات كان أبو عبد الله سيد معظم المغرب ودخل سنة ٢٩٥ بلدة رقادة قرب القيروان على زيادة الله الأغلبي فطرده. وأمر بتغيير السكة. فنقش على أحد الوجهين «بلغت حجة الله» وعلى الوجه الثاني «تفرق أعداء الله». ونقش على الأسلحة: عدة في سبيل الله، وعلى أفخاذ الخيل الملك لله، وعلى أعلامه «سيهزم الجمع ويلون الدبر».. ولكن لمن كان الرجل يعمل؟ ومن المهدي؟

المهدي كان تلك الشخصية الغامضة التي تحركت في زي التجار من مخبئها في سلمية بالشام إلى الرملة، ومن الرملة إلى مصر. وبعد أن كاد يذهب إلى اليمن قرر الذهاب إلى المغرب. ومع القوافل انساق حتى سجلماسة في

القرى المغربية . وانكشف أمره . وصاحب الدولة هناك من الخوارج . فقبض عليه وسجنه . فيما كانت أعلامه تنتصر بكل مكان ! .. وسمع أبو عبد الله بسجن الإمام . فذهب بالجيوش إلى سجلماسة . وطوقها سنة ٢٩٦ وهرب صاحبها اليسع بن مدرار في الليل بأهله ومتاعه . ووقف أبو عبد الله يقول للناس وهو يبكي : هذا إمامكم . وخرج الإمام في موكب من النصر اخترق المغرب حتى القيروان ! ... وأبو عبد الله بين يديه . ورؤساء كتامة يسعون في الموكب . وفي يوم الجمعة خطب له على منابر المغرب جميعاً على أنه أبو عبد الله المهدي أمير المؤمنين وأول الخلفاء الفاطميين . بعد سنة من ذلك كان أبو عبد الله الشيعي مع أخيه وأنصاره على الأعواد ! قتل بأمر المهدي نفسه ! .. كان أبو عبد الله يحسب أنه سيبقى الآمر الناهي في الدولة . ولم يعلم أن ظهور الإمام كان نهاية المغامرة ! ونهاية حياته ! ...

كاسا إمبراطور الحبشة

نحن الآن في منتصف القرن الماضي، وأوروبا تنتشر في أفريقيا من السواحل إلى الداخل كالسرطان الخبيث، والأطماع الذئبية تسوقها في كل حوض وهضبة. وإمبراطورية أثيوبيا في حالة مفزعة من الفوضى السياسية والتفكك الاجتماعي. كانت نهباً مقسماً بين الأمراء «الرؤوس» وعصابات الطرق. وحده الإسلام كان يزحف إلى البلاد تحت تأثير مصر (محمد علي). وينشر الأمن. ويثبت أقدامه بين قبائل الجالا بزعامة الرأس طلّاق علي الذي أخذت شهرته تقض مضاجع الأوروبيين قبل الأحباش! ...

يجب أن تبقى الحبشة بعيدة عن النفوذ الإسلامي بقيام نظام قوي فيها يساعده المستعمرون. تلك كانت الخطة التي وجدت تنفيذها في شخص مغامر شاب، ثائر، عتي، ذكي اسمه كاسا! من الصفوف الخلفية ظهر. كان أبوه زعيم قبيلة صغرى في المغرب. وقد توفي وكاسا ما يزال صبياً. فدخل بعض الأديرة. ثم ما لبث أن هرب من الدير ليرأس عصابة للنهب والسلب... كان هذا العمل يرضيه لأنه يسمح له أيضاً بحرب المسلمين، كأحد الفرسان الصليبيين. وقد انتصر مرة على بعض الحاميات المصرية، فأخذ نجمه يتألق. والتف حوله الرجال. وبدأت مغامرته الكبرى تأخذ أبعادها...

تحدى المتنفذين من الرؤوس في إقليم غوندارو والأقاليم المجاورة. تحدث في الإصلاحات الداخلية. وفي القضاء على الفساد. تكلم بضرورة توحيد البلاد أمام الأخطار. أما الرؤوس النبلاء فكانوا يتهامسون فيما بينهم عن أصله.

ويرسمون علامات استفهام ويقصدون بالطبع الحديث عن أمه المعوقة بائعة نبات الكوسو في الطرقات ! فقد كانت هذه عقدته التي رافقته طول حياته .

وجاءت سنة ١٨٥٣ لتكون نقطة الانقلاب في حياة كاسا . تحدى رؤوس أقاليم غوجام ، بيغمدير ، شوا . وأخضعهم الواحد بعد الآخر . إلا أنه لم يجرؤ على الوقوف للرأس علي . تراجع بعد أن هجم عليه . وانسحب لأنه لم يقو على الصمود . وقد مات ملك شوا قهراً . فأخذ كاسا ابنه منليك وكان في الحادية عشرة أسيراً إلى قلعة مغدالا (المجدل) في المرتفعات الشرقية . فبقي في أسره عشرة أعوام قبل أن يستطيع الهرب . ويصبح فيما بعد الإمبراطور منليك الثاني المشهور ! ...

ودحر كاسا بعد ذلك جيش الإمبرطورة منين التي بادرته بالحرب خوفاً على عرشها . لكن هجوم الجيش المصري على أثيوبيا جرف المجتمع . وجرف فيمن جرف كاسا وجيشه وقواه . وسقط كاسا نفسه جريحاً . وشمتت الإمبراطورة بجراحه فأرسلت له قطعاً من لحم البقر مع رسالة تقول : إن الصعاليك من أمثاله لا يستحقون بقرة كاملة !! وأعلن أحد قواد الإمبراطورة أنه سيسحق ابن بائعة الكوسو . ويسوقه راكعاً أمام عرشها ... لكن كاسا شفي من جراحه . وتوجه إلى هذا القائد بقوة جبارة . هزمه شر هزيمة .. وأسره وقدم له كاسا طعاماً . وأجبره بدل النبيذ أو الماء على تجرع عدد من نقيع الكوسو ! ... وأتم كاسا توحيد أقاليم الهضبة الحبشية . فما جاءت مطالع سنة ١٨٥٥ حتى كان يعلن نفسه إمبراطوراً على أثيوبيا باسم « تيودوروس الثاني » . واسم تيودور كان عزيزاً على كاسا لارتباطه بأسطورة حبشية تقول بأنه سيظهر ملك بهذا الاسم يوحد البلاد . ويدحر المسلمين . ويستعبد بيت المقدس فهو آخر الصليبيين ! ...

ونقل الإمبراطور الجديد العاصمة من غوندار إلى قلعة مغدالا . لكنه لم يكن ليستقر فيها ! .. فقد كان على التجوال المستمر بين الأقاليم . وكان تنقله

يعني انتقال حاشيته جميعاً وبلاطه ودواوينه وجنده مع عائلاتهم وأولادهم والمواشي . فالعاصمة مخيم ضخم سيار يضم عشرين ألف خيمة ! يزحف أوله فلا يلحق به آخره إلا بعد أيام !

في سياسته الداخلية أعلن تيودور أن كلمتي أثيوبيا والمسيحية كلمتان مترادفتان عنده . ولذلك جعل همه على ثلاثة أهداف :

محاربة الرؤوس الاقطاعيين المتنفذين . والقضاء على قبائل الغالا المسلمة . والعمل على تنصيرها بالقوة . ثم طرد المسلمين الآخرين من البلاد ... وقد عمد إلى تجزئة الإقطاعيات الكبيرة إلى مساحات صغيرة وتوزيعها على رجاله . لكن هذا الإصلاح الأول سرعان ما انقلب إلى فوضى عامة . وإلى مذابح ومجازر جماعية . دخل منها في حروب محلية بكل مكان . وخرج عليه حتى أقرب الناس إليه . وأحفظ موقفه المتعصب قبائل الغالا المسلمة فأعلنت العصيان . ودخلت معه في اشتباكات دموية لا تنتهي ... ومع أنه سحق كل مقاومة بنفسه . إلا أنه لم يدرك استحالة تحقيق أهدافه ، ولا سيما في بلد شديد التخلف كأثيوبيا . وانقلب بعد سنوات معدودة إلى دكتاتور جزار . ليس من مسافة عقل بين لسانه وسيفه . وفتك بأقرب أعوانه لمجرد الشك . وبدأ يفقد اتزانه . غدا أشبه بكلب مسعور انطلق من شكائمه . بعضهم رأى فيه صورة إيفان الرهيب أحد طغاة الروس القدماء ، وقد تجسدت في جلد أفريقي ! وبلغ به الهوس سنة ١٨٦٥ أن زج ببطريرك الكنيسة المرقسية الزائر لأثيوبيا في السجن ، لأنه جاء إليه برسالة من خديوي مصر ! ..

وكانت عقدة أمه بائعة الكوسو تلاحقه . فكان يثور ويعاقب بلا رحمة من يتصور أنه يمس هذا الجرح في ماضيه . ومع أنه استعان بعدد من الخبراء الأجانب إلا أنه كان يحرص على ربط نفسه أمامهم بداوود وسليمان . ويردد أمامهم إني أعرف أن أوروبا تحتقرني بسبب انحداري من أسرة ريفية ! وافتقد المستشارين الوطنيين من حوله فلم يجد أحداً . وتمرد في النهاية على التأثيرات

الاستعمارية الإنكليزية وكان يقول : « لن يستطيع الأوروبيون الاستهزاء بي كما يفعلون مع راجات الهنود » . ودخل معها في حرب سافرة ... بينما استفحل أمر الثورات على الإمبراطور . وبدت في أثيوبيا أوائل سنة ١٨٦٧ كالبركان يتضرم بالحمم . وأخذ جيش تيودور يتقلص . بهرب المئات منه . وأخيراً بدا للإمبراطور ما بدا لنيرون في روما من قبل . فأمر بإحراق غوندار ، العاصمة ذات القصور والقلاع . ودفن الكثيرون من أهلها أحياء تحت الأنقاض الملتهبة .. وقادت إنكلترا سنة ١٨٦٨ حملة حربية ضد تيودور الذي اعتصم في قلعة مجدالا .

كانت أرتال الجيش الإنكليزي الجرارة موضوع تفرج للأحباش العاديين . ولكنها قهرت عزة الهضبة الحبشية بما حملت من العتاد والأموال والمظاهر الحربية . وطوق الجيش القلعة . وفضل تيودور الانتحار ! ..

وحين اكتشف الجنود الغزاة جثته انقضوا على ثيابه الزاهية يتخاطفونها للذكرى . فيما كان الألوف ينهبون قصره ورياشه .

وانتهت مغامرة الصليبي الأخير في أشبار من التراب .

الحلاج

المغامرون ليسوا معدناً واحداً ولا فئة إنسانية ذات أحلام متشابهة . لقد يكون الفاتحون العسكريون ، أكثرهم أخذاً بالألباب ودوراناً على الألسن ! ولقد يكون المكتشفون أبعدهم أثراً عن الإنسانية . أو يكون المبدعون . لكن في المغامرين أيضاً من هم مغامرو أفكار .. منهم من هم واقفون بعرض الطريق لعقائد الناس وفكر الناس ، ملقون إلى الشيطان بكل ما تواضع الآخرون على احترامه وتقديسه . «أزهار الشر» هي حصيلتهم الكبرى . ترضيهم وإن أغضبت الجميع . من هؤلاء كان الحلاج . حلاج الأسرار كما يسمونه .

هل تذكرون هذا الشهيد الصوفي ؟ أو هذا المارق غير الشهيد ؟

ولد الحسين بن منصور الحلاج ٨٥٧/٢٤٤ ومسقط رأسه جنوبي منطقة الأحواز العربية من إيران في قرية على الطريق الجسري الممدود حتى خراسان . يسكنها قوم من اليمانية . وأبوه كان يعمل في حلج القطن بين تشتر وواسط . ونشأ الطفل في واسط . في بيئة حنبلية مع بعض الأقلية الشيعية . وكانت المدينة تتميز بمدرسة القراء المشهورة فيها . فانخرط الطفل في المدرسة وصار ن الحفاظ وهو في الثانية عشرة . ومنذ تلك السن المبكرة كان الفتى يتساءل عن أمور عديدة لا يطرحها في الدين الكثيرون . كان يتساءل عن المعنى الرمزي الذي يرفع دعاء الروح إلى الله ؟ وعن التوحيد هل يكون حقاً إن لم يكن بالصيغة التي أنزله بها الله ؟ وعن الإيمان هل يكون إلا باستبطان الصلاة باللغة العربية وتحقيقها في الذات ؟ وانحرف الفتى اليافع شيئاً فشيئاً إلى التصوف. درسه على سهل التستري سنوات . ثم تركه وهو في العشرين وارتحل

إلى البصرة ليتلقى خرقة الصوفية بمراسمها المقررة من عمرو المكي . فقد كان لا بد من الخرقة ومن هذه المراسم إن شاء أحد دخول الطريقة وسلوك سبيل التصوف ...

وفي البصرة تزوج الحلاج من ابنة أبي يعقوب الأقطع وكان زواجاً موفقاً حتى آخر حياته . أثمر ثلاثة أبناء وبنتاً واحدة . وهذا ما دعاه للإقامة في البصرة . كما دعاه لأن يكون بجانب حي تميم ، وحليفاً للزيدية التي أثارت في البلد فتنة الزنج . لكنه أثار عليه أستاذه عمرواً المكي الناقم على صهره الأقطع . وقد صبر على هذه الخصومة فترة طويلة . ثم استشار أستاذه الجنيد الصوفي المشهور في بغداد . فأشار عليه بالارتحال إلى مكة . ونذر نفسه هناك للبقاء عاماً للعمرة . وقضى العام في حالة صوم وصمت دائمين . ألم تفعل ذلك مريم ابنة عمران . استعداداً لميلاد كلمة الله فيها ؟

وعاد من مكة إلى الأهواز وبدأ الوعظ في الناس مما أثار الصوفية عليا فنبذ خرقة التصوف ليتكلم بحرية ويكشف نفسه عارية أمام أبناء الدنيا قائلاً : إذا استولى الحق على قلب أخلاه من غيره وإذا لازم أحداً أفناه عمّن سواه ... وكان جمهرة المستمعين إليه من الكتاب وعمال الخراج وممن شدا شيئاً من الثقافة ، فاتهم بالثورة والاحتيال . كان يريد الناس على الاستبطان الصوفي الكلي ليكتشف كل إنسان الله من أعماق ذاته . ويستخدم تعبيرات ذات مظهر شيعي أو معتزلي مع أنه كان سنياً حتى العظم ويتجنب التسميات المميزة بين الفرق . وارتحل إلى خراسان كما كان يفعل البصريون يدعو لمذهبه في الثغور هناك خمس سنوات . ثم عاد إلى الأهواز . ثم انتقل مع الأهوازيين إلى بغداد حين نقلت دار الطراز إليها . ثم عاد إلى مكة حاجاً في أربعمائة من لمريدين . فاتهمه المتصوفة القدامى بالسحروالاتصال بالجن . ثم خرج في سفرةطوق بها ما وراء المشرق الإسلامي . خرج في البحر إلى السند وصعد في النهر إلى

كشمير . ثم عاد وركب مع القوافل إلى طرفان في تركستان القصوى ، يريد أن يحيط بالإنسانية كلها ! ...

وعاد من رحلته البعيدة حاجاً إلى مكة ، للمرة الثالثة والأخيرة . ووقف بعرفة وصاح لبيك اللهم لبيك . وسأل الله أن يزيده فقراً . وأن يجعل الناس تنبذه وتنكره ليكون الله وحده في ذاته . وعند الأضاحي قال الحلاج : تهدى الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي ! ... ولما عاد إلى بغداد كان يصلي عند قبر ابن حنبل . وفي النهار يلقي على قارعة الطريق بالأقوال الغريبة التي تصدم الناس كأنها الألغاز والكفر : « يا أهل الإسلام أغيثوني فليس يتركني ونفسي فآنس بها . وليس يأخذني من نفسي فأستريح » .. وصاح في جامع المنصور : « إن الله تعالى أباح لكم دمي فاقتلوني . اقتلوني تؤجروا وأسترح » .. وقال : « على دين الصليب يكون موتي » ! « أنا الحق أنا الحق . أنا الله » وأثار هذا النغم الناشز العامة والخاصة على السواء .. لا سيما بعد أن خاض الحلاج في رسائله التي كتبها ، في المسائل الشائكة بين السنة والشيعة والإصلاح السياسي . فشكاه القاضي محمد بن داوود . وتبنى الوزير ابن الفرات الشكوى والمحاكمة .. ولكن الحلاج اختفى .

استمر بحث الشرطة عنه ثلاث سنوات ثم قبض عليه في الأهواز وحمل إلى بغداد لتبدأ فيها قضيته التي استمرت تسع سنوات !! كانت المحنة الحاسمة في حياته ... أطلق أصحابه بعد فترة . وعرض هو مصلوباً ثلاثة أيام بحجة ملفقة هي أنه « يدعو للقرامطة » ! وهي دعوى تشبه الاتهام اليوم بالشيوعية . ثم حبس في دار السلطان وسمح له بوعظ المسجونين والمثول بين يدي الخليفة . ويقولون إنه شفاه من مرض ألم به وأحيا ببغاء كانت لولي العهد مما زاد من اتهامه بالنعبذة والسحر . لكنه في الوقت نفسه كتب مؤلفاته الأخيرة ... ورفض أن يغادر السجن حين فتحت أبوابه في بعض ثورات العامة . لكن التنافس السياسي في بغداد أدى ، حين هزم أصدقاء الحلاج ، إلى تقديمه

للمحاكمة ليدافع عن هذا « العشق الإلهي » الذي يدعيه . وهم إنما كانوا يحاكمون أنصار الإصلاح السياسي من خلاله .

وقد تمت المحاكمة على منصة مرتفعة ــ كما حدث لبابك الخرمي ولجان دارك ــ وفي إطار فني ضخم من قصر الخلافة وقد حضرها فيما يقولون ٨٤ من العلماء، واستمرت سنة كاملة من ٣٠٨ إلى ٩٢١/٣٠٩ ــ ٩٢٢ وصدر الحكم بالإعدام وإن كان الحكم مؤامرة سياسية كاملة !

ومع أن الخليفة المقتدر أراد تبديل الحكم إلا أن الوزير حامداً خوفه من ثورة اجتماعية حلاجية فوقع الأمر بالإعدام . وأسلم الحلاج إلى رئيس الشرطة ابن عبد الصمد . ونفخ في الأبواق وجيء بالحلاج . فجلد ألف سوط . وقطعت يداه ورجلاه ثم صلب . وما يزال به رمق من حياة ... ثم ضرب رأسه وصب على جذعه الزيت بينما كان زحم الحجارة يأخذه . وأحرق بالنار وألقى برماده من أعلى المئذنة في دجلة ... قالوا : كانت آخر كلماته : « يا إلهي إن كنت تتودد إلى من يؤذيك . فكيف لم تتودد إلى من يؤذى فيك ! »

بعد قرون من ذلك أقيم في بغداد قبر تذكاري للحلاج ظل كعبة الزائرين عدة قرون ! ولكن ... من المتصوفة !!

دولسبس

فرديناند دولسبس اسم لامع كالمدالية في المشرق. الكثيرون يعرفونه ويعرفون أنه فتح قناة السويس. اسمه يرتبط بها. كانت هي مغامرته الهندسية الكبرى. ولكن هل تعرفون أن الوجه الآخر لهذه المدالية، في الغرب، كان الوجه المظلم الزري؟ هل يعرفون أن هذا المغامر مات وهو محكوم بالسجن سنوات بتهم الإهمال والاحتيال؟ مشروعه الذي كان حلم قرون عديدة وهو قناة السويس. وجد كل الأسباب المهيأة لنجاحه: وجد الأرض الرملية السهلية. ووجد السلطة التي تساعده بالنفوذ والدعم. ووجد الحكام المندفعين في خدمة الغرب ومشروعات الغرب. ووجد البحيرات الوسيطة. ووجد بالمجان الخيل والحمير والجمال التي تحفر وتنقل. والفلاحين يساقون آلافاً بالسخرة للعمل...

وغامر دولسبس. ونجح المشروع ووزعت أسهمه المالية بين كبار المتمولين والشركات. ووقف الخديوي اسماعيل بجانب الإمبراطورة أوجيني الفرنسية وممثل السلطان العثماني مع الأمير النمسوي، يستعرضون بالملابس المزركشة مرور السفن في بحر العرق والجوع والعري الذي فتحه الفلاحون المطرودون بعيداً عن الاحتفال!.. أما دولسبس ١٨٦٩ فكان نجم جميع المحافل. كان هرقل الجبار الذي أزاح القارة الأسيوية عن الأفريقية وفتح الطريق المائي لأساطيل أوروبا إلى الشرق وثروات الشرق...

وقضى دولسبس عشر سنوات وهو طاووس المحافل في أوروبا. كانت خيلاؤه تزداد مع ازدياد حركة المرور في القناة وتنامي العائدات وكثرة المنتفعين.

ونظر في خريطة العالم فوجد مكاناً لقناة أخرى ليست أقل شأناً ولا قيمة عالمية من السويس. إنها قناة أخرى مماثلة عبر برزخ باناما. «فاتح القناتين» لقب يغري بالمغامرة. وبرزخ باناما أضيق بكثير من برزخ السويس طوله ٦٥ كم وطول قناة السويس ١٧٠ كم... إنه برزخ أغرى الكثيرين بفتحه. في القرن السادس عشر فكروا به. في القرون التالية وضعت عدة مشاريع له. في سنة ١٨٥٠ وقعت إنكلترا والولايات المتحدة اتفاق كلايتون بولوير لإقامته!... ولكن دولسبس هو الذي قرر المغامرة. نشوة قناة السويس كانت ما تزال، كالخمار، تدير رأسه وسنحت له الفرصة الذهبية في مؤتمر المجلس الدولي للعلوم الجغرافية في باريس سنة ١٨٧٩ فأعلن مشروعه الثاني وأعلن ثقته بتحقيقه بنصف الوقت الذي اقتضاه المشروع الأول في السويس.

ومع أن المؤتمر وخبراءه اعترضوا جميعاً على مشروع دولسبس. كشفوا مواطن الخلل فيه. نقدوا جوانبه الضعيفة، إلا أن دولسبس تمسك بمشروعه. وصوتت الأكثرية إلى جانبه. فطرح المشروع إلى الاكتتاب العام. وكان اسم دولسبس كافياً ليتراكض الناس إلى تغطيته بسخاء. وسرعان ما أنشأ الرجل «الشركة العالمية لقناة باناما»!

الكشف المتسرع الذي أجراه دولسبس مع مجموعة من المهندسين على الموقع، والتقرير الموقع، والتقرير الموجز الذي وضعوه كان إنذاراً ثانياً لدولسبس فقد كان سلبياً إلى أبعد الحدود، سلبياً لدرجة التشاؤم والتراجع عن المشروع الفاشل. أشار إلى كتل الصخر الهائلة التي يجب أن تزال، إلى عشرات آلاف العمال الذين يجب أن يحشدوا، إلى المناخ، إلى سوية الماء، إلى المهندسين المتنوعين... التقرير كان شبه إدانة. ولكن دولسبس الواثق من نفسه، رمى بالتقرير في أحد الأدراج. لم يسمح بالكشف عنه. واعتمد على قدرته الذاتية في تذليل الصعاب كل الصعاب.

وبدأت الشركة أعمالها رسمياً سنة ١٨٨٠ وبدأ الحفر الفعلي سنة ١٨٨١ وتسلم الأعمال الهندسية شارل بن فرديناند دولسبس!! وأخذت الأخبار منذ الأيام الأولى تتحدث عن الصخور ونطح الصخور الهائلة الوعرة. إنها سلسلة جبال الآند تلك التي تقطع. ثم توالت أخبار الأحراج البدائية الكثيفة التي تغطي المنطقة ثم جاءت أخبار الحشرات ألواناً وأشكالاً...

وتوانى العمل ثم توانى وتوانى... وأكلت الملاريا دماء العمال وعضلاتهم والعيون. وحين تفشت الحمى الصفراء كانت تذهب كل يوم بأرواح العشرات والمئات. وبدأ العد العكسي للمشروع وأخذ يترنح. وأخذت أصابع الاتهام تشير إلى المهندس العظيم! وكانت مواسم الأمطار الاستوائية تأتي بالطامة الكبرى. تهطل متواصلة المياه كالأنهر. وما تلبث الأنفاق والخنادق المحفورة أن تتحول إلى أحواض من الوحل والأقذار والطين وتتوالى الانهيارات في المرتفعات.... الطبيعة في مصر لم تحارب دولسبس أبداً. أما هنا فكان كل شيء ضده حتى الحشرات. كانت الأمطار تزيدها كثرة وضراوة، وحتى الحميات سلبت العمال قواهم. وحتى النمل انتشر، كما لو تفجرت الأرض كلها عنه. يأكل كل شيء، لا ينجو منه حتى الذين وضعوا أسرتهم في أحواض الماء.... وكان دولسبس يمارس الرشوة لإسكات الصرخات والشكاوى...

في السنة السابعة لبدء الأعمال كان الموت قد حصد ألفين من ثلاثة آلاف من المهندسين والفنيين. وقد بلغ عدد الموتى من العمال عشرين ألفاً. ولم يبق من الممرضات الأربع والعشرين سوى ثلاث!.. وتوقف المشروع كله سنة ١٨٨٩ وانهارت الشركة ولم تكن حفرت سوى ثلث القناة وتولت التحقيق لجنة حكومية رسمية تبحث أسباب الانهيار. وانهالت فوق رأس دولسبس تهم الرشوة والفساد والغباء والتضليل والتغرير. سلبوه كل الأمجاد التي أغدقوها عليه

في قناة السويس ... ومثل أمام المحكمة وهو على فراش المرض فحكم بالسجن خمس سنوات، ورأفوا بشيخوخته فجعلوها مع وقف التنفيذ !

وقد مات قبل أن تنتهي السنوات الخمس !

وشقت الولايات المتحدة بعد ذلك القناة ما بين ١٩٠٥ و١٩١٤ بعد أن دفعت أهل المنطقة إلى الثورة والانفصال عن كولومبيا واستأجرت منهم منطقة الحفر ودفعت في فتح القناة ٣٨٠ مليون دولار ... وهي تعدل الآن ٣٨٠ ملياراً ...

لكن ألم تستفد منها أكثر من ذلك ؟

الشاعر بيتوفي

مر كالبرق الخاطف على وجه الأرض. لم يعش سوى ٢٦ سنة! ثم فقد فجأة خلال ملحمة حربية فلا يعرف أحد مصيره ولا قبره. ومع أنه سلافي الأصل إلا أن هنغاريا لا ترى لنفسها شاعراً قومياً غيره، ولا مغامراً قومياً مثله!

إنه ساندور بيتوفي Pitoci (أو بالسلافية السكندر بتوفيتش).

كان شاعراً بوهيماً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. كان يعيش الشعر، يتنفس الشعر، يلوك الشعر كما يلوك الناس الحروف. وقد عشق كل ذرة من تراب وطنه، كل ورقة شجر، كل عاصفة ثلج. والتهب مع كل ثورة، التهب حتى الاحتراق...

يوم ولد سنة ١٨٢٣ كانت المجر إحدى مملكتين يجتمع تاجهما على مفرق الامبراطور النمسوي في فيينا. وكان أبواه من متوسطي الحال جداً ثم تحسنت أوضاعهما. فاستطاعا دفع الكسندر (ساندور) إلى المدارس. ورغم تنقله بين مدرسة وأخرى كان الأول دوماً. لكنه منذ وصل الثانية عشرة تحول فجأة إلى تلميذ مهمل منكمش. ووضعه أبواه في مدرسة دينية ثم في مدرسة إنجيلية وعبثاً كان تقليب المدارس. كان يحلم أن يلحق بالفرق المسرحية المتنقلة ليرى البلاد... وهرب من المدرسة في الوقت الذي جاء فيه فيضان من نهر الدانوب على كل ثروة أبيه من الماشية والكروم والمطحنة. وقاده أبواه إلى مدرسة للرهبان فهرب منها. ولكنه ذهب هذه المرة إلى بلدة بست، المدينة الشقيقة لبودا على الدانوب. حيث الصالات المتلألئة وموسيقى الغجر. وكان الشتاء

الرهيب يعصف بالطرقات والثلج يصفع الشجر والمطر لا يرحم . ولكن بيتوفي تابع الطريق أياماً بعد أيام . زعم للرهبان الكاثوليك على الطريق أنه سيعتنق الكاثوليكية لينال بعض الدراهم . حتى وصل وقدم نفسه إلى مدير المسرح الوطني الذي قبله خادماً يكنس المسرح وينظم كراسي الصالة . وحين استطاع الظهور على الخشبة ليمثل فوجئ بوالديه ينتظرانه في الكواليس ويرجعانه إلى البيت ولكنه سرعان ما اصطدم مع الوالد وطرد ليذهب فيتطوع جندياً في الجيش الإمبراطوري الخليط من كل جنس ...

في الجيش وهو في السابعة عشرة كسح الثلج . غسل العربات . تنقل مع فرقته من مكان إلى آخر . مرض بالتيفوئيد . بصق الدم . وأخيراً سرح من الجيش لضعفه فراح يطوف هنغاريا بلداً بعد آخر ... ولكن على قدميه . وفي الخرج المتدلي على عنقه وظهره أثمن ما يملك : دفتر أشعاره ! التشرد كان في دمه كما كان الشعر . لكنه كان فقيراً حتى حافة الشحاذة . ونحيفاً جداً كالعصا أو أدق . أما وجهه وثيابه فكانت بلون التراب .

وعاوده الحنين إلى الدراسة فجأة . فالتحق بمدرسة . وأعطته خبرته في الجندية بعض التميز فأسس مع بعض رفاقه جمعية « الربيع » ! التي كان الشعر هو السيد المطلق فيها . ثم عاد يعمل في المسارح المتنقلة مع كل بؤسها . والديون تواكبه كعصائب الغربان على الجيف . وكثيراً ما كان بيتوفي يدفع ثمن غذائه شعراً . ولكنه لا يجرؤ أن ينسبه لنفسه . وحظي ذات يوم بهدية : زوج من الأحذية فقرر السفر إلى العاصمة ، على قدميه دوماً . ولو أن دموعه كانت تتجمد على خديه من الصقيع والمطر الثلجي يخرق عظامه . وعمل هناك ناسخاً لخطب البرلمانيين . ثم جمعت له بعض الدراهم فاشترى سروالاً وردنكوت وسافر إلى مدينة بست ليعمل مترجماً عن الألمانية . واجتمع له بعض المال القليل لكنه أنفقه في المرض والمقاهي . وباع حتى ثيابه . وعادت مدفئته

الباردة كالجليد هي المنضدة التي يكتب عليها أشعاره ليرسلها مرتزقاً إلى بعض المجلات .

ولكن الأشعار كانت تلتهب وتلهب الناس . وتبرع أحد المحامين بطبع ديوان هذا الشاعر فنفذ بسرعة من الواجهات ودعته إحدى المجلات النسائية ليكون نائب رئيس التحرير .

وبدا كأن الحظ قد بدأ يبتسم له . وإذا ترك العمل في المسرح أواخر سنة ١٨٤٤ حين ودع الجمهور لآخر مرة بين الضحك والصفير . فقد كان يرى في الشارع تارة بملابس فلاح مجري يحمل السوط ، وتارة كالديك الرومي المزخرف على الموضة الأخيرة في باريس ولندن ، وتارة ثالثة بملابس القرن الثامن عشر المطرزة !

وسجلت سنة ١٨٤٥ السنة الانقلابية في حياة بيتوفي . تحول المتشرد فيها إلى كاتب . وسوف يتحول فيما بعد إلى محرض جماهيري ثم إلى زعيم ثوري ، ويتأكد بالتدريج أثناء هذا التحول أن القوة وحدها هي التي تحرر المجر من النير النمسوي وأن الوطن بحاجة لا إلى البلاغة ولكن إلى الجنود . بهذا بدأت مغامرة الشاعر !

لقد وجد هدفاً لحياته . صار الشعر لديه خادماً للمثل الأعلى في الثورة ، إنه شاعر بلى ولكنه الآن شاعر محارب ! وحين عاوده الحنين إلى التشرد ودع أصحابه في عشاء وانطلق إلى الجبال في الشمال يزور الأطلال الرومانتيكية ، يحضر السهرات الريفية ، ينشد الشعر ، يناقش في اللاهوت وفي السياسة وحين عاد إلى بست عاد إلى الفقر والتسكع ... لكن روحه كانت قد نضجت حتى الامتلاء فأنتج أروع أشعاره وألف مع بعض رفاقه « جماعة العشرة » التي قررت عدم نشر أي شيء من إنتاجها في الصحف . لتنشره في صحيفة سوف تصدرها باسم (دفاتر بست) . كان ذلك أول إضراب يقوم به

الكتاب ! ولكن الرقابة النمسوية خنقت المشروع ... وللمرة العاشرة عاد بيتوفي إلى التشرد في الأقسام الشرقية والجنوبية من المجر . كان يسمها الأرض الموعودة ...

وفي هذه المرحلة عرف بيتوفي الحب. ولكنه لم يلهمه إلا أضعف أشعاره . وعادإلى بست ليطبع ديوانه الذي سماه التسمية الغريبة بالنسبة لشاعر في الرابعة والعشرين : الديوان الكامل .

وتوزعت نسخ الديوان في ساعات . لم يكن ذلك نجاحاً فقط ولكنه كان نصراً. لقد تحول بيتوفي بذلك من زعيم المدرسة الشعبية في الشعر إلى شاعر الوطن. وتزوّج حبيبته رغم رفض والدها له. واستدعى والديه فسكنا معه . وبدا كأن المرحلة الرومانتيكية قد انتهت ... لكنها بالعكس بدأت ...

في أول مارس سنة ١٨٤٨ وصل المجر خبر سقوط لويس فيليب في فرنسا وهرب متيرنيخ الثعلب الدبلوماسي النمسوي . وأيقظ ذلك الثورات في كل أوروبا . وثارت بست ، قلب المجر الراعف ، بدعوة قبضة من الكتاب كان منهم بيتوفي . في مقهى بيلفاكس كتبوا البنود الاثني عشر للحريات وكتب بيتوفي النشيد الوطني المجري وتحت المطر الهائل كأفواه القرب جمعوا الفلاحين من السوق . وقاموا بمظاهرة المظلات ، فقد كانت المظلات تغطي الناس وهم ينشدون بملء الحناجر

وقوفاً أيها المجري إن الوطن يدعونا
إنها الآن الساعة أو لن تكون أبداً
هل نكون عبيداً أو أحراراً ؟
ها هنا الخيار الوحيد . فلنقرر ما نريد !
نقسم بإله المجريين . بلى ! نقسم
أننا لن نكون أبداً عبيداً . لن نكون !

كان يوماً تاريخياً يوم ١٥ مارس ١٨٤٨ في البلاد. خطب فيه بيتوفي مرات عديدة.

وتحرر المساجين وتراجعت الحكومة الاستبدادية. لكن الأهم عند بيتوفي أن الجميع، حتى المستبدين غنوا نشيده بحماس منقطع النظير. بدا له كأن حياته كلها لم تكن سوى إعداد لهذا اليوم!

وصوت البرلمان على تأليف جيش من مائتي ألف رجل رصد له ٤٢ مليون فورنت. وهرب الأرشيدوق أيتين نائب الإمبراطور النمسوي وتسلح الفلاحون. ونصب بكل مكان شعار الثورة حتى النصر. وصارت الغابات مأوى للعصابات التي لا تظهر إلا في الليل كالشياطين. وفي الجيش الجديد عين بيتوفي برتبة نقيب. لم تضع أيامه من الجندية الأولى عبثاً. «تركت قيثارتي لآخذ الحسام إني أرى في الأفق الشمالي التماع نجم ذهبي يقودني»! كذلك كتب. وترك بيتوفي زوجه وابنه الوليد للقدر. ولحق بالجنرال بيم الذي يقود المقاومة. كانت الأشهر الستة التي قضاها على الجبهات من سنة ١٨٤٩ موفقة مع الجنرال الذي كان يقدر الشاعر وإن لم يكن يفهم شعره ورفعه إلى رتبة مقدم لكنها كانت مأساة مع وزير الحرب وبعض الجنرالات الآخرين. رفضوا ذلك واندمج بيتوفي مع الأشلاء والدماء وأنين الجرحى. وعاش حتى أقسى المرارة مآسي الهزائم والانتصارات لحظة لحظة. وفي هذه الأثناء خسر أباه بالتيفوس وأمه بالكوليرا وتساقط عدد من أصدقائه قتلى.

إنه: «الزمن الضائع المرعب» كذلك كتب... وفي معركة سجسفار Segesvar رآه بعضهم يتنقل بين الجثث والقنابل كالشبح دون ملابس عسكرية... ثم لم يره أحد بعد!

وتشكلت بسرعة أسطورة أن الشاعر سيعود. لم يصدق أحد موته.

سيأتي يوم يظهر فيه من قلب غابات البلوط . بعد سنوات طويلة . حين يئس الناس عادوا يذكرون قوله :

يا عاصفة الليل أنت وحدك سوف تأتين لسقيا ترابي بالدموع

لأنك تعرفين أختك العاصفة الكبرى : روحي !

ابن حفصون

حين تسمع باسم ابن حفصون فأنت لا بد ذاهب بفكرك إلى الأندلس، فباحث في أطراف الذاكرة عن ابن زيدون وابن حمدون وابن شقرون وخلدون وعمرون، فمفتش لهذا الاسم عن مكان يأخذه في معارفك الأندلسية أشاعر هو أم فقيه، أم عالم جراح أم وزير؟... وأنت على حق في بعض ظنك. فالرجل لا شك فيه. لكنه ليس من الشعر ولا العلم ولا الحكم في شيء. وإن شغل الأندلس خمسين سنة.

بلى! خمسين سنة ظل شغل الناس الشاغل. وعاصر أربع خلفاء فحاربهم وهادنهم، وظل منهم بين بين. والمؤرخون المسلمون ينعتونه باللعين والخبيث ورأس النفاق وكبير الثوار. لكن أحداً لا يستطيع تجاوزه أو إسقاط اسمه بين الأسماء الكبيرة في الأندلس. فمن هذا الرجل؟

هو عمر بن حفص (أو حفصون) بن عمر بن جعفر بن شتيم من كورة (تاكرنا) من أعمال رندة نشأ على الإسلام الذي اعتنقه أبو جده جعفر وما كان ليذكر الرجل لو أنه كان واحداً من الثوار. ففي عهده ما بين سنة ٢٧٠هـ/٨٨٤ و ٣٠٥/٩١٨ كان ثمة الكثيرون من المنتزين على الأمير الأموي في الأندلس. وكان الكثير من الثوار ـــ نستطيع أن نعد منهم فوق الثلاثين من المولدين ومن العرب والبربر أمثال ديسم بن إسحق الذي غلب على مدينتي لورقة ومرسية، وعبيد الله بن أمية بن الشالية الذي ظهر في كورة جيان، وبني ذي النون في شنت برية وعبد الملك بن أبي الجواد في باجه وبكر بن يحيى في شنت مارية. ومحمد بن لب القسوني في الثغر الأعلى. وعبد الرحمن بن مروان

ابن الجليقي في بطليوس وآخرون كثيرون ... لكن ابن حفصون تفرد بالمراس الصعب عن جميع هؤلاء منذ سنة ٢٧٠ وتحصن في ببشتر من حصون مرية اتخذه قاعدة وحاضرة وليس بينه وبين قرطبة سوى ثلاثين فرسخاً !

كان عمر أكبر ثلاثة من الأخوة لكنه تميز عن أخويه بشراسته ومزاجه الحاد الذي أدى به ، وهو في مقتبل العمر ، إلى قتل جار له في مشاجرة تافهة . وخاف الأب على ابنه فأرسله إلى الجبال المجاورة يواريه عن الأنظار. لكنه اشترك مع العصابات المنتشرة في أعمال السلب . وقبض عليه عامل المنطقة وكان يجهل ماضيه فاكتفى بجلده لحداثة سنة وأطلقه . وقصد عمر المغرب يعمل في دكان بعض الخياطين في تاهرت ولما تعرف عليه بعض المسنين من بلده هرب عائداً إلى الأندلس في جوار عمه . وهناك جمع حوله عصابة من أربعين شخصاً كانوا النواة لحركته الثورية فاستقر بهم في جبال ببشتر ثم استنزلته قوى الأمير الأندلسي مع غيره من الثوار فأقام في قرطبة أربع سنوات ، لم تستطع أن تلملم من جموحه . في البلاط ، بعد أن ألف حياة الجبال . لا سيما وقد أذله المكلف بأمره - فنقله من نزالة إلى نزالة وأطعمه شر الطعام ... فعاد إلى جبال ببشتر وإلى جمع عصابة جديدة ...

خلال السنوات السبع التالية انقلب ابن حفصون من قاطع طريق إلى زعيم حركة ثورية أوشكت أن تجعل منه الرجل الأول في الأندلس . حصن ببشتر كان الحصن المنيع القائم على مهاو عنيفة من الصخر تزل عنه الأبصار فكيف الأقدام؟ ولا يوصل إليه إلا من خوانق لا تتسع لأكثر من عابرين أو ثلاثة . ولا يمر بها في بعض الشعاب سوى رجل واحد .

وابن حفصون كان شخصية جذابة متواضعة : يتقدم المقاتلين ويُحلّي الشجعان بأساور من فضة وذهب . وقد وطد في المنطقة التي يحكمها الأمن المفقود في غيرها . كان السيف أهون عقوباته على أعوانه المسيئين . وقد استقطب المولدين في الأندلس ضد العرب والبربر . وأعانه على التوسع

اضطراب الإمارة الأندلسية وخطة الانكماش داخل المعقل الحصين والانسياح عند كل فرصة ثم تعاقب ثلاثة أمراء على الإمارة في أربع سنوات محمد والمنذر وعبد الله كانوا يسالمونه حين يضيقون الخناق عليه ويكرمونه. ثم ما يلبث أن ينتقض ويعاود القتال...

هذا بالإضافة إلى تكاثر المنتزين والثوار من كل جنس ولون وإنشائهم الإمارات الصغرى والدول وتحرك أهل الذمة في قرطبة ولم ينفع العرب زعامة سوار بن حمدون المحاربي لهم وانتصاره في مواقع كثيرة فقد قتل غيلة سنة ٢٧٧ وحملت جثته إلى مولدي البيره فمثلوا بها أشنع التمثيل... وهكذا وجد ابن حفصون الفرصة لتصبح أكثر الحصون وأهمها في وسط الأندلس جنوب الوادي الكبير بين يديه.وتهيأ للوثوب على قرطبة وكاتب القوى المناوئة للأمويين في المغرب من الأدارسة والأغالبة.وصار يغير على ضواحي قرطبة وبلغ من استهزائه بأمير الأندلس أن أعلن مكافأة خمسمائة دينار لمن يبشره بسير الأمير نحوه! فلم يكن لدى الأمير سوى نصف ما كان لدى ابن حفصون من القوى والجند

مع ذلك خرج الأمير عبد الله إلى المعركة بنفسه وانتصر على ابن حفصون النصر الساحق في معركة بُلاي (آغيلار) التي تدافع فيها أصحابه هاربين إلى الحصن حتى سدوا الباب ولم يستطع ابن حفصون نفسه دخول الحصن فرفعه أصحابه من أعلى السور وهو على صهوة الحصان...

ومضت سنوات من الكر والفر تزيد على خمس عشرة سنة بين الثائر المغامر والأمير الأموي برز خلالها قائد الأمير أحمد بن أبي عبدة الذي اتبع سياسة ضرب الثوار بعضهم ببعض واستغلال الفرص لتطويق ابن حفصون وعزله وارتكب ابن حفصون في تلك الفترة خطيئته المميتة سنة ٢٨٦ حين أعلن عودته إلى النصرانية وتسمى بصموئيل وإذا كان ذلك قد أكسبه عطف الذميين وبعض

المولدين فقد انفض عنه بالمقابل جميع المسلمين . وبعد أن كانت حربه تنال العطف بوصفها بين أمير وثائر صارت جهاداً بين إمام وبين مارق مرتد ! ..

وبدأ ابن حفصون يخسر ويخسر . قتل بعض من كبار أصحابه . لم يعد يشن الحروب الهجومية واكتفى بالدفاع . هزم في عدد من المعارك . وهادن أكثر من مرة . ودبت الشيخوخة في أوصاله فانطفأ . وبينما كان الأمير عبد الرحمن يزداد تطويقاً له ويأخذ سبعين حصناً من حصونه الثلاثمائة ثم يقطع عليه طريق الاتصال بموارد مؤنه من المغرب توفي ابن حفصون سنة ٣٠٥/٩١٨ ...

هل انتهت ثورته ؟

قادها أولاده عشر سنوات أخرى عبثاً بعده حتى قتل بعضهم واستسلم بعضهم الآخر .

وحين نبش قبر الثائر في حصن ببشتر وجدوه مسجى الوجه إلى الشرق ويده على صدره على الطريقة المسيحية ! لقد أوصله الحقد إلى الكفر !

غوغان

المغامرون، معظمهم يرسم مغامرته سلفاً في خاطره. يخطط لها، يؤنقها ليقتنع أولاً قبل أن يقوم بها، وبعض يلقي نفسه مع التيار. يجدف حسب الموج، يترك للّحظة أن تخلق التي تليها. لا يهمه ارتبطت بها أم كانت دون غاية، أما عادة دمج الذات برغمها في الطبيعة اللانهائية، محاولة إلغاء الحاجز بين الجسد واللون والعطر والغابة الوحشية. الرغبة في إعادة الخلق الأول كما كان الخلق الأول أما هذا كله، فمغامرة لم يقدم عليها إلا هذا الفنان المدعو بول غوغان! قلائل هم الذين دافعوا عنه ومعظمهم من الفنانين. أما باقي الناس، فنزلوا عليه بالسياط. حتى أولاده.

لوحته الفنية الكبرى لم تكن رسومه، ولو أنه كان رأس مدرسة كاملة فيها، ولكنها كانت حياته المملوءة باللامنطق وبالألوان المتضاربة وبما أودع فيها من مواقف محيرة. في سنة ١٩٢٣ حين نشر ابنه إميل غوغان ما كتبه الأب باسم «مذكرات شخصية» وانتهى فيه إلى سنة وفاته لم يضف إلى حياته جديداً. لم يفسر شيئاً من تصرفاته. كل ما فعل أنه كشف عن موهبة أخرى من مواهبه: أنه ليس برسام فقط ولكنه كاتب أيضاً. وكاتب فريد موهوب.

ولد بول غوغان سنة ١٨٤٨ في باريس لأب يعمل في الصحافة وأم من البيرو بأمريكا الجنوبية. ونشأ في هذا البلد، في تلك الفترة التي عرفت أعنف العواصف من الثورة والمجد وذل الانكسار ونشوة استقطاب الدنيا. كان القلق فقط هو الذي يميزه. والتوق إلى الإثارة والفزع. كان يبحث عن شيء ما. بدأ حياته بحاراً إلا أن ألوان البحر كانت أهم عنده من البحر نفسه، إنها ألوان

مغرية مجنونة . نادته أكثر من مرة وكان رفاقه يربطونه بالحبال من الخوف . وذات مرة ألقى بنفسه إليها وأنقذه من الموت شاب زنجي . ألقى بنفسه وراءه . وترك الملاحة ليعمل في البورصة . وسرعان ما اختنق بدنيا الأرقام والمال . ثم عمل في أحد المصارف وهو يعرف أنه يكره الجمع والطرح وتزوج ورزق ثلاث بنين ... وكان شيء في داخله يقلقه : إنه يريد شيئاً آخر ولكنه ليس يدري ما هو هذا الذي يريد ! وخلال ذلك كان اللون والرسم يتفجر على يديه وقد أسس مع صديقه إميل برنارد مدرسة بون آفن . ولم يتردد حين أتيحت له الفرصة في القيام برحلة إلى جزر المارتيتينك على الطرف الآخر من الأطلسي في البحر الكاريبي . وذات يوم هجر كل شيء : زوجته . أولاده . بيته . باريس . فرنسا كلها . هجر كل شيء فجأة وبنوع من القطيعة المرة العنيفة وخرج .. كانت رغبة الانطلاق التي تقرض روحه قد بلغت حد الفيض وألقت به أهواؤه العاصفة في جزر تاهيتي ... في أقصى قلب المحيط الهادي حيث لا يحكم أحد بالأصول . (وهي غير جزر هايتي في البحر الكاريبي)

كتب بعد ذلك يقول : « ولدت هارباً . ولا أعتقد أنني من أصل إنساني . لا بد أن بين أجدادي عدداً من الطيور المهاجرة . فأنا لا أقوى على البقاء كثيراً في مكان واحد . ولا أعرف ماذا يحدث . إن المكان نفسه يرفضني . ينكرني ... »

وحين رست السفينة بغوغان في تاهيتي أحس بخيبة أمل . إن الجزيرة غنية حتى الفيض بالألوان الاستوائية الحارة العنيفة ولكنها هادئة . هادئة حتى الموت . وكل شيء على بدائيته الأولى يوم الخلق الأول لولا أن فيها بعض الفرنسيين المستعمرين وعلى رأسهم الحاكم والقسيس وبائع الدخان والطوابع . وأقام في تاهيتي في كوخ بناه بنفسه يشرف على الغابات . ولا باب له لأنه يريد العيش مع الطبيعة نفسها ولأنه يريد أن تدخل عطور الغابة والطيور والخضرة الوحشية حتى المرأة إليه حتى فراشه من كل هذه الحياة . هل كان صوفياً

يبحث عن الله في خلقه؟ إنه كتب: «إذا أردت أن تبحث عن دليل على عظمة الله وعلى أنه هو الجمال نفسه فتعال ها هنا. ألف دليل في ألف جسم في ألف شكل... في كل لحظة من يوم آمنت بالله مليون مرة!»

بعد فترة عاوده الحنين إلى باريس أو الدنيا الموارة. إلى لياليها التي لا تحن إلى الشمس. إلى الأوبرا والمسرح؛ إلى الطرقات الممطرة والجو المشحون بالغيوم!

حن إلى أوروبا. إلى الفزع، والرعب وعصف العواصف. وعاد إلى أوروبا. ولعله فجع. كان بالنسبة إلى الناس، إلى أصدقائه، إلى زوجته وأولاده، مخلوقاً غريباً شاذاً. شاهد مسرحية عدو الشعب التي تتحول فيها بطلة المسرحية إلى كتلة من نار ثم تقرر أن تعيش في وادي الذئاب. فكتب: «أعرف عدواً آخر للشعب. لم تمش وراءه زوجته. واستطاعت أن تنشئ أولاده على كرهه. علّمتهم كيف يقولون: ماما بعشرين طريقة ولم تعلمهم أن يقولوا بابا ولو مرة واحدة. جعلت حرف الميم واحدة من أسنانهم أما الباء فسقط من بينها. جعلت زوجها عدواً لشعبه. لأبنائه. أو جعلت أبناءه أعداءه ليس أسهل من إسقاط امرأة ولكن ما أصعب أن يرفعها إنسان... وقرر العودة إلى جزيرته. لكنه أراد المزيد من الابتعاد. فهاجر إلى جزر المركز القصية. ظنها أقصى الأرض. هناك: الطبيعة طوفان من العطاء. كتب يقول: «من يعرف كيف يعطي هو من يعرف كيف يأخذ. وهنا كل شيء يعطيك. ولكن هذه الطبيعة لم تتعلم بعد كيف تعطيك بحساب. إنها تفيض عليك. تغرقك. تخدرك. تفقدك وعيك وعقلك. ولذلك فإني على يقين من أني لن أخرج منها عاقلاً. لن أخرج منها. إنها أروع وأعظم وأخلد مؤامرة على عقلي التافه...»

وقضى غوغان الشهور والسنوات. يرسم ويرسل إلى باريس وإلى المعارض الدولية. وأحياناً يلقي بأروع لوحاته من النافذة.. كان يهرب من الشهرة ولكن الشهرة كانت تلاحقه ويقنعه بها كبار فناني العصر. واختفى

ذات مرة عدة شهور في قلب الغابات . حبس نفسه في بعض الكهوف وغطى جسمه بالوشم وراح يرسم . وكانت الرسوم جحيماً من الألوان ووهجاً من الفكر وسعيراً من العطور . كانت كأنها صرخات من الجحيم الآخر الذي يعيشه . ولكنها فن . تبسيط في الرسم واللون . وإلغاء للمصنوع وللبعد الثالث . أسلوب من التزيين عظيم الجلال .

وكان غوغان يعرف ما سوف يقوله الناس ، كل الناس عنه . كتب يقول : « سوف يقولون هذا هو الجنون . ثم يمزقون الفنان بعد ذلك . ولهذا فإني أوفر عليهم هذا العناء . لقد مزقت نفسي ! ما الذي يحتاج إليه أي إنسان ؟ هو أن يعرف نفسه . كثيرون يرون وجوههم في الماء . كثيرون يرونها في بحيرات الدم . وأنا أردت أن أمسح بروحي على كل ورقة . أن أخوض في كل عبير . أن أرمي بنفسي عند كل غريزة . لقد كنت فريسة للطبيعة . وفي الوقت نفسه افترستها ! » .

ومات غوغان وسط الطبيعة هناك ولكن على النحو الذي اختار : اختار البحيرة التي يدفن قربها واالأغصان الزرقاء وعظام الذئاب وريش النعام . وجعل دخوله إلى القبر مع ضوء القمر ... رسم اللوحة كلها قبل أن يموت . كانت لوحته الأخيرة . ولكن أحداً لم ير هذه اللوحة غيره !

ابن ياسين

المغامر في حديثنا اليوم نموذج من أندر النماذج في التاريخ نبلاً وزهداً واستقامة سبيل . كان معلماً . ولكنه وضع نفسه في الطبقة الأولى من المعلمين حين ضرب بسلوكه الكامل المثل لأصحابه وللجيوش التي جاءت من بعده فأسست دولة المرابطين ... إنه مغامر بلى ! ولكنه وضع مغامرته في خدمة مثله الأعلى الإسلامي . وظل يستقي من هذا المثل ويسقي الناس حتى أدركته الطعنة الأخيرة ! ..

اسمه : عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي المصمودي الصنهاجي ...

ونحن نجهل الكثير عن نشأته الأولى ، عن أبيه ، عن دراسته . كل ما نعرف أنه درس في الأندلس سبع سنوات ثم قدم القيروان فدرس على كبار الشيوخ فيها ثم انتقل إلى السوس في المغرب الأقصى فأقام في رباط هناك كان يعرف بدار المرابطين ... وإنما بدأ يدخل التاريخ مع بدء مغامرته الدينية ولم يكن يخطط لها ولا يفكر فيها . لكن أستاذه شيخ القيروان أبو عمران الفاسي كان في أساسها . جاءه يحيى بن ابراهيم الصنهاجي يطلب إليه أن يبعث معه إلى قبيلة صنهاجة من يثق فيه من طلبته لتبصيرهم في الدين فقد كانوا على شفا جرف من النار ، وكان تدينهم رقيقاً رقيقاً فبعث به إلى تلميذه وكاك بن زللو اللمطي صاحب دار المرابطين ليختار له الشيخ الذي يراه وكان ابن ياسين هو ذلك الشيخ .

ولم يتردد الرجل في قبول المهمة ــ المغامرة . أليست نوعاً من الجهاد في سبيل الله ؟ أو ليست إعلاء وإتماماً لكلمة الله ؟ وبين أهله وعشيرته ؟ ومضى

يحيى بن ابراهيم وعبد الله بن ياسين إلى مضارب لمتونة التي احتفلت بقدوم الشيخ وأقبلت عليه للسماع والتحصيل . وسرعان ما رأى ابن ياسين بُعد ما بين مثله الإسلامي الأعلى وبين ما حوله من التهاون ومن البدع في الدين . ولم يستطع التردد في فرض الدين الكامل على الناس . أخذهم بتقويم الأخلاق وتطبيق حدود الشريعة ، كل الحدود ، وتغيير المنكر ، ومقاومة شهوات النفس . وبدأ التململ فيهم فلم يأبه . وظهر الإهمال فلم يبال . وبرموا بدعوته الإصلاحية التي تريدهم أن يكونوا ملائكة أو نوعاً من الملائكة . وهم قبليون وحياتهم نهب وسلب وانفتاح على الدنيا ، لكنهم لم يجرؤوا على طرد الشيخ ولا على إسكاته . كان في حماية زعيمهم يحيى بن ابراهيم الذي يحبه ويرضاه .

لكن يحيى بن ابراهيم ما لبث أن توفي ولم يستطع خليفة يحيى بن عمر أن يحمل صنهاجة على حب ابن ياسين كما لم يستطع أن يمنعها من الاعتزال عنه . وأحس ابن ياسين أنه صار من دينه ودعوته في غربة فقرر الهجرة إلى الجنوب . إلى أرض السودان . إنهم أقل ضراوة من الصناهجة . وقد صحبه في هجرته رئيس صنهاجة نفسه وسبعة رجال معه . وقصد ابن ياسين ربوة من جزيرة في نهر السنغال الأدنى ودخل مع جماعة في غياضها ينقطعون للعبادة في رباط أنشأوه . غير أن هذا الرباط ما لبث أن أضحى مقصد الناس . وتكاثر حول ابن ياسين الأتباع والدارسون .

كان الإسلام قد فشا في المنطقة منذ زمن . والمنطقة خليط من الزراع ورعاة الجمال والتجار ومعدني الذهب . ولكن أكثر من التحق بابن ياسين كان من رجال لمتونة نفسها . جاؤوه تائبين . ونظر الرجل ذات يوم فإذا في جزيرته قرابة ألف رجل . قلوبهم معه وسيوفهم بين يديه ...

وولدت في خاطره المغامرة الكبرى . استخار الله ثم جمع الرجال فقال :
«إن ألفاً لن تغلب من قلة . وقد تعين علينا القيام بالحق والدعوة له

وحمل الكافة عليه فاخرجوا على بركة الله وأنذروا أقوامكم وخوفوهم عقاب الله فإن أبوا ولجوا في الطغيان استعنا بالله عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا »

وتحول الشيخ قائد جيش !

اختار لنفسه أن يذهب إلى رؤساء البربر كما ذهب رفاقه وكانت مدة الإنذار سبعة أيام. ولكن معظم الجمع عاد فاشلاً كما عاد الشيخ. وكان على ابن ياسين أن يتحول إلى القتال ... بمن معه من المرابطين.

كان ذلك سنة ١٠٤٢/٤٣٣م. وأخذ جيش المرابطين ينتقل من نصر على القبائل المجاورة إلى نصر. وكانت هذه الانتصارات أقوى حجة وإقناعاً للناس من جميع التعاليم التي كان يبشر بها من قبل رأوا أن ديناً يكفل لأصحابه مثل هذه الانتصارات لهو الدين الحق. رجال صنهاجة كانوا أول المقتنعين التائبين عن خطئهم الأول. الشيخ نفسه زاد اقتناعاً وآمن أن الله هو من يهديه. وأن عليه متابعة الطريق وحين خضعت قبائل صنهاجة كلها، كان عليه أن يخرج من الصحراء إلى المغرب وقد دعاه شيوخ سجلماسة من جهة والسوس من جهة أخرى فافتتح سجلماسة بعد معركة نكراء قتل فيها صاحبها مسعود بن وانودين. وافتتح السوس ووادي درعة وكان من دعاه واستقبله شيخه القديم وكاك اللمطي. ومشت جيوش ابن ياسين شمالاً تتابع الطريق لأنها لم تكن تستطيع التوقف. كانت تدفقاً قبلياً من الجنوب الصحراوي نحو المغرب الخصيب وجناته والظلال. وقد زاد هذا من اندفاع المرابطين ومن تزايدهم وحماستهم البالغة. اللثام الداكن اللون الذي كانوا يغطون به الجزء الأدنى من وجوههم صار نوعاً من الامتياز للمجاهدين. ومع أن ابن ياسين فرض على من يخالف تعاليمه العقوبات العنيفة إلا أنهم تقبلوها بالرضى والطاعة. إن مقابل القبول النصر والفوز بالغنائم وبالجنة وهكذا فتح المرابطون بلاد أغمات والمصامدة وبني يفرن. لا يقف في وجههم شيء.

أثناء المعارك قتل يحيى بن عمر قائد الشيخ سنة ٤٤٧ فتولى أخوه أبو

بكر بدلاً منه. وثارت سجلماسة فأخضعت وتحركت مناطق زناته فأخمدت وانفصلت واحات درعة فاستردت ... وبدا بوضوح أن دولة كاملة قد قامت ما بين حوض السنغال وأواسط المغرب وأنها ما تزال في طور الشباب والتوسع ...

وكان على الشاطئ الغربي للمغرب عند تامسنا وأنفه دولة غريبة التكوين والمعتقد، صغيرة معزولة فقرر ابن ياسين اكتساحها. واكتسحت سنة ١٠٥٨/٤٥١ ولكن الثمن كان باهظاً لأن ابن ياسين نفسه أصيب في المعركة بجرح مميت. وأحس بالأجل يقترب فجمع شيوخ صنهاجة وقال:

«يا معشر المرابطين أنا ميت في يومي هذا وأنتم في بلاد أعدائكم فإياكم أن تجنثوا. انظروا من ترضونه لأمركم وجيشكم وزكاتكم ...» وأطبق جفنيه ...

على أن حركة المرابطين التي تحولت في عهده من حركة دينية إلى دولة سياسية لم تكن لترضى بانتهاء المغامرة ولم تكن لتغمد السيوف في الأجفان! ظلت تتابع النصر حتى قلب الأندلس!

غـوردون

الإمبراطوريـة الاستعماريـة البريطانيـــة كانـــوا يسمـــونها في الماضي بالإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس. وأبناء الامبراطورية كانوا في ذلك الزمان ملوك الأرض. عصاتهم سيف، وسيفهم عشرون مدفعاً أما مدفعهم فكان قانون العالم. والأسماء اللامعة في القرن التاسع عشر كان لهم منها الجانب الأكبر والأبرز أحداثاً وتأثيراً وهزة كون. وبعضهم منح اسمه للأرض وللمدن والشوارع ... رودوس ــ كوك. ليفينغستون. نابييه. بروس (مكتشف بحيرة فكتوريا ومنابع النيل الأبيض) وآخرون كثيرون ... كلها كانت أسماء مقدسة في أرضها الأم. ولكنها ملعونة بكل ألسن الأمم. إن وراءها تاريخاً من المآسي والدماء يخجل من الخجل. وإن كانوا في إنكلترا لا يرون منها إلا الوهج اللامع وسيل الذهب والراية الخفاقة على الأساطيل بالنفوذ! من هذه الأسماء المقدسة الملعونة في وقت معاً غوردون. تشارلز غوردون.

كان الرجل ممتلئاً حتى الفيض بحقد الرجل الأبيض الأوروبي وبامتيازه، بتعصب المبشرين حتى يختفي القسيس وراء ثيابه، وبعنجهية العسكري المالك للقوة فكل قوة أخرى هينة في عينيه، وإن لم تكن حقيرة ... ولقد توافق الرجل كل التوافق مع العصر الاستعماري المتألق الذي عاشته الامبراطورية البريطانية منذ أواسط القرن الماضي. فوجد نفسه في خدمتها بكل مكان. وإلى الجحيم بالناس كل الناس في باقي الأرض....

ولد غوردون سنة ١٨٣٣ لأب ضابط في المدفعية. ولذلك نشأ على العسكرية وتخرج بها ملازماً من كلية الهندسة الملكية سنة ١٨٥٢. وانخرط في

حرب القرم سنة ١٨٥٦ وتميز بشجاعته حتى التهور في حرب الخنادق حول سيفاستوبول. ورقي إلى رتبة نقيب سنة ١٨٥٩ ... كل ذلك كان حتى الآن أمراً عادياً ولكن غوردون كان يحلم أن يجرب سيفه، في الشعوب الضعيفة البعيدة: في الصفر والسود إن لم يكن بالحمر أيضاً. إنهم ما يزالون يحاربون بالرمح والسهم ولدى غوردون المدفع ومن ورائه الأساطيل ...

وهكذا تطوع غوردون في الفرقة الإنكليزية الذاهبة لحرب أهل الصين سنة ١٨٥٩ وبدأت المغامرة الغوردونية. كانت إنكلترا قد جربت هزيمة الصين قبل ١٧ سنة. هزمتها، أذلتها، في حرب الأفيون المخجلة. وأجبرتها على تناول الأفيون وفتحت مرافئها الواحد بعد الآخر لكل التجارات مع كل الدول وأخذت منها هونغ كونغ. ودخل البرابرة تجار الأفيون والبنادق والكتب المقدسة ومشترو العمال يستغلون الصين ...

وكان رد الفعل الصيني عنيفاً. تألفت في الصين حركة التاي ـ بينغ. كانت ثورة بؤساء وفلاحين فقراء انضم إليهم معوزو المدن والملاحون على الأنهر والحمالون في المرافئ وعمال المناجم حتى الأفاقون والقراصنة والفارون من الجندية ثم انجر مع الحركة المثقفون والملاكون والتجار الصغار ... وقفوا جميعاً ضد بيكين الخانعة. قصوا ضفائر الشعر التي كانت ترمز إلى الولاء للإمبراطور تاي بينغ أو تاي بينع تيان كود. كانت تعني رجال المملكة السماوية للسلم الأكبر. وقد ساروا وراء هونغ ـ شيو ـ شوان الذي آمن بالتوحيد وانتقد الكونفوشية وحرر المرأة وحرم الأفيون. والميسر ... لكن الثورة بعد نجاحاتها الأولى تعثرت وقامت في غربي الصين ثورة إسلامية ليست أقل منها قوة وشأناً. أرعبت المستعمرين أكثر مما أرعبت الصين.

وكانت تلك فرصة الاستعمار الكبرى. دخلت الجيوش الإنكليزية والفرنسية مدينة تيان تين ثم مشت إلى بكين العاصمة فاحتلتها! كان غوردون بين الضباط الكبار الذين دخلوا العاصمة سنة ١٨٦٠ وقاد بنفسه الحريق

الذي أتى على القصر الصيفي للإمبراطور وشهد التهام اللهب لذؤاباته المذهبة وللتحف النفيسة المنثورة في أبهائه وللسجاد والثريات والمقاعد والحدائق الأنيقة الأنيقة...

في سنة ١٨٦٢ كلف غوردون مع سلاح المهندسين المتصل به بتقوية حصون المركز الأوروبي للتجارة في شانغاي. كان يمثل التسلط الاستعماري كله. وكانت ثورة التابينغ تهدده. بعد سنة من ذلك صار غوردون قائداً لـ ٣٥٠٠ من الفلاحين صاروا يدعون أنفسهم: الجيش المنتصر على الدوام والذي أخذ على نفسه مهمة الدفاع عن العاصمة المحتلة! ولعب هذا الجيش خلال الأشهر الثمانية عشر التالية دوره الهام في قمع الثوار....

وعاد غوردون سنة ١٨٦٥ إلى إنكلترا لتلقبه الجماهير المتحمسة بغوردون الصيني. ولكنه انصرف إلى تطوير ولعه التبشيري بجانب العسكرية. وفجأة هبطت عليه مهمة استعمارية جديدة سنة ١٨٧٣ وقد اختاره لها هذه المرة الخديوي اسماعيل باشا. خديوي مصر. لا تعرف أي دخائل التجسس والاستعمار تدخّلت لتضع اسم هذا الرجل على لسان الخديوي. لماذا؟ لكي يحكم السودان الاستوائي؟! ولكن هذا هو الذي وقع. كان الخديوي قد وضع كل ثقته في الاستعماريين الأوروبيين الذين أغرقوه تدريجياً في الديون وكان سدادهم أن يأخذوا مصر كلها بعد ذلك. وكان تعيين غوردون لهذا المنصب دفعة على الحساب.

في أبريل سنة ١٨٧٤ كان غوردون الصيني يتحول إلى غوردون السوداني ويلبس الطربوش ويحمل لقب باشا. لا سيما بعد أن كبر منصبه فأصبح الحاكم العام للسودان! وانطلق غوردون يقيم المحطات على طول وادي النيل حتى حدود أوغندا في الجنوب ويطرد الثوار...

وكل ما قد خلق الله ... وما لم يخلق
محتقر في همتي ... كشعرة في مفرقي

كذلك قال المتنبي قبله. ومن هم الثوار؟ هم الوطنيون المسلمون الذين التفوا حول محمد أحمد المهدي يرفضون الاستعمار والاحتلال المتسلل وراء السيادة المصرية. كان يعرف أن قوة الثوار في تجارة الرقيق فقمع التجارة والنخاسة وأجبره المرض سنة ١٨٨٠ أن يعود إلى إنكلترا ويستقيل ليخدم في الهند والصين وجزر موريشيوس وفي مستعمرة الكاب بجنوب أفريقيا وأخيراً أرسلته الحكومة الإنكليزية سنة ١٨٨٤ ومغامراته على الدوام في خدمتها، لإخلاء السودان من الجيش المصري. كانت قد احتلت مصر سنة ١٨٨٢ وتريد توطيد الاستعمار الإنكليزي وحده في السودان. ولكن الثورة المهدية كانت مظفرة هناك وكان معظم البلاد في أيديها وهي تهدد الخرطوم. وكان المنقذ في رأي لندن هو غوردون!

وصل الرجل إلى الخرطوم في فبراير سنة ١٨٨٤ وبعد شهر واحد كانت قوات المهدي تطوق المدينة. حوض النيل والبراري والقرى المؤمنة والرماح كلها كانت معها. وأرسل غوردون يطلب النجدة وانتظر ثم انتظر عبثاً. كانت لندن قد نسته. وضاق الحصار وقلت القوات شهراً بعد شهر. وتضاءل المقاتلون معه وكانت النجدة الإنكليزية البالغة ١٨ ألفاً التي حملتها شركة كوك في أعجب عملية نقل، ما تزال عند شلالات النيل على الحدود. حين سقطت الخرطوم في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ ...

وحسب غوردون بكبريائه المشدودة بالإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس أنه يستطيع الوقوف للمهاجمين وحده. ونزل إليهم على سلم قصره ...

لكن رمحاً حديداً اخترقه في الصدر وأحاله جثة ...

في بريطانيا جعلوه الشهيد القديس وثاروا ضد الحكومة التي تركته لمصيره. لكن الدراسات أثبتت أنه كان ضحية عناده ... فقد أهمل جميع الأوامر التي وصلته بالانسحاب. كان يتصور أنه يستطيع وحده أن يضيف السودان إلى تاج الإمبراطورة فكتوريا!!

أحمد الكبير

هذه قصة من قصص الحبشة المسلمة. وملحمة من ملاحمها الكبرى إن شئت. المؤرخون يطلقون عليها اسم « الغزو العظيم » فهي أول مرة وآخر مرة يكتسح فيها الإسلام بلاد الحبشة جميعاً ويستولي فيها على السلطة كاملة. القوة. الشمول. الإحكام التي تمت بها الملحمة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البلاد... لكن الغزو العظيم بقي دون غد. لم يقم له بسبب التدخل الاستعماري من يتابعه. ولذلك انحدرت الحبشة بعده إلى ما كانت عليه قبله من التفرق والفتن الصغيرة وضاعت المغامرة العظمى في زحمة التواريخ.

صاحب هذه المغامرة ــ الملحمة اسمه أحمد بن ابراهيم ويلقبونه بالأعسر. الناس يسمونه أحمد الكبير لأنهم رأوه كبيراً كبيراً ففي مطالع القرن السادس عشر وعلى وجه التحديد بعد سنة ١٥٢٠. يروي مؤرخ هذه الفترة عربي فقيه أن الناس كانوا ينتظرون يومذاك ظهور رجل. منقذ: والقصة كثيراً ما تتردد أمثالها في عصور الاضطراب والفوضى. إنها صدى ملل الناس من الانهيارات، تعبير عن ضيقهم بالواقع والفتن والفساد. ولكنها أهون القصص بالنسبة لأحمد الكبير فقد نسجت حوله منها الكثير. وبعضها منامات يذكر بعضها أن أحدهم رأى الرسول عليه السلام فيما يرى النائم وعن يمينه أبو بكر وعن يساره عمر بن الخطاب ومعهم علي بن أبي طالب وبجانبه أحمد بن ابراهيم فسأله: من هذا يا رسول الله؟ فقال: هذا هو الرجل الذي سيصلح الله به بلاد الحبشة، وكان أحمد أيام هذه الرؤيا فيما يقولون ما يزال جندياً من أواسط الجند...

ولد أحمد سنة ١٥٠٦ لأب عنده بعض اليسار . المؤرخون الأوروبيون يجعلونه ابناً لأحد القساوسة . ويجعلونه يتحول إلى الإسلام بعد أن ترك موطنه إلى إمارة عدل المسلمة على ساحل البحر الأحمر . صار هناك جندياً . ومن الجندية قفز إلى الزواج من ابنة إمام زيلع . ومن الزواج قفز إلى سلطنة عدل . وكانت بلدة هرر قلقة الإسلام في جنوب الحبشة وقد انتقل إليها السلطان أبو بكر بن محمد وجعلها عاصمة له . فأمضى أحمد الأعسر سنواته الأولى في صراع مع هذا السلطان وانتهى ذلك السلطان بالقتل وقام أحمد بتنصيب شقيق القتيل ملكاً على هرر وتابعاً له ... وحين فرغ من ذلك تطلع لتحقيق هدفه الأكبر : أن يكون إماماً للمسلمين في جميع أنحاء الحبشة .

هل كانت تلك العملية في هرر هي التي وضعت المغامرة في خياله ؟ أم أن المغامرة كانت منذ البدء كامنة في أعصابه وشرايينه ؟ ماذا يهم ؟ لقد ولدت الفكرة الطموح . على أي حال . صارت الهم الأول له وبدأ أحمد يعمل لها وعليها .

أعلن أولاً رفضه دفع الجزية لملك الحبشة . وكانت هذه الجزية مقررة منذ العهد الأبعد . والامتناع عنها كان يعني الحرب . وقد قصد إليها أحمد قصداً وحين حاولت الحبشة اجتياح سلطنة عدل تصدى لها الإمام أحمد . المعركة أخذت شكل الجهاد . الأشلاء على جوانبها . الدماء التي سالت . بقايا الفرسان والرماح والجماجم كلها حكت ذلك.وانتصر أحمد الانتصار الذي أرضاه وملأه ثقة بالغد . أصداؤه ضربت لها الطبول في كل ركن حبشي فيه مسلم . لقد أنبت فيهم ثورة . أثار فكرة الجهاد .

قبل أن يتجه إلى الحبشة والأحباش رأى أحمد أن عليه أن يضع حداً لحركات الأمراء الصوماليين كان عليه أن يحمي ظهره وقد فعل . ثم نظم صفوف القبائل التي انضمت إليه في مهارة غريبة . جعل منهم قوة ضارية

منيعة. حذره بعض أعوانه من قوة الحبشة فقال: إن الجهاد في سبيل الله لا يمكن أن يعود بالخسران على المسلمين.

وحاز الإمام أحمد أول نصر كبير على الأحباش سنة ١٥٢٩ لكن قبائل الجالا البدو الذين يشكلون الجانب الهام من قوته كانوا يقلقونه. كانوا يتأبون على الترويض. فأعاد تكوين جيشه بعناصر تدين له وحده بالولاء وخاض الجيش الجديد معركة وثانية وثالثه. وانتصر في داورو شوا سنة ١٥٣١ وفي أمهرة ولاسنا سنة ١٥٢٣. واجتاح في طريقه السلطنات الإسلامية الصغرى بالي. هدية. سيداما. جورجي. كانت غزواته سريعة. مفاجئة وإن كانت تتسم بكل مظاهر القسوة. وبعد أن صار له جنوب الحبشة ووسطها غزا المقاطعات الشمالية وسط مقاومة لا أعنف ولا أشرس. لكنه انتصر. ووصل كسلا في الشمال واتصل بالمقاطعات الإسلامية القائمة يومذاك في شرقي السودان...

وأخذ الأحباش، مع هذه الانتصارات يدخلون في دين الله أفواجاً. المعجبون بالانتصارات. الكارهون للأباطرة. الذين أرغموا في الماضي على ترك الإسلام. كلهم عادوا إليه. جاء أحد الرؤوس مرة إلى الإمام أحمد مع عشرين ألف مقاتل فقال: «أنا مسلم ابن مسلم ولكنهم أسروني ونصروني. وأنا الآن جار الله ورسوله وجارك أن تقبل توبتي. وهذه جيوش الإمبراطور معي تريد أن تدخل عليك وتسلم..».

كان الإمبراطور الحبشي، لينا دنقل، في تلك الفترة طريداً من جبل إلى آخر. حاول لملمة جيوشه المنهارة فهزم الهزيمة المنكرة واستولت جيوش الإمام على مدينة أكسوم وأحرقتها. بعد أن تناهب الجنود والناس ما في كنائسها من الكنوز والذهب. ونصحت الملكة هيلينا الإمبراطور بطلب النجدة من البرتغاليين. وقد استجاب ملك البرتغال بسرعة وأرسل أسطوله وعليه أربع مائة فارس لكن الحملة البرتغالية حين وصلت سنة ١٥٤١ كان الإمبراطور قد

توفي قبل سنة من ذلك تحت وطأة الإجهاد والمرض والبؤس الشديد. وكانت آخر مظاهر المقاومة في الشمال قد انتهت قبل ذلك ...

وكان دخول البرتغاليين في الساحة تحولاً كبيراً فيها. كانت لديهم الأسلحة والمدفعية الحديثة. وقد انضم إليهم الأمراء القدامى، وقبائل تيغرى. وأسرع الإمام أحمد إلى لقائها ليحول بينها وبين التوغل في البلاد لكن الأسلحة الحديثة ألحقت به الهزيمة سنة ١٥٤٣ وأخرجته من المعركة مثخناً بالجراح.

كانت هذه أول هزائمه. وما لبث بعد أيام أن لحقته هزيمة أخرى لم يتمكن أن يفلت من الأسر فيها إلا بأعجوبة. فلم يكن لدى البرتغاليين من الفرسان من يمكن أن يتعقبه. الهزيمتان المتتاليتان هزتا الإمام أحمد حتى الأعماق. فسارع في العودة إلى جبال زوبول لجمع قواته وتنظيم صفوفه وبعث إلى الوالي العثماني في اليمن يستنجد والي شريف مكة. واستطاع بالفرسان التسع مائة الذين جاؤوه وبالمدافع العشرة أن ينتصر على القوى الحبشية ــ البرتغالية ويفقدها نصف قواها عدا الأسلحة والذخائر ...

لكن الإمام أحمد ارتكب الغلطة المميتة بعد ذلك. حسب الأمر قد توطد له فأعاد الجنود والمدافع إلى أصحابها مع الشكر. هل كان يا ترى يخاف بقاءها؟ وانتهز البرتغاليون وإمبراطور الحبشة هذه الفرصة الثمينة فكرُّوا عليه. كانت قواته المنهكة أضعف من أن تقاوم. فلم ينهزم فقط ولكن قتل في المعركة سنة ١٥٤٢ ... وتغير بمقتله مجرى التاريخ في الحبشة، وإن تحول إلى قصص وأساطير .. فلم يقم بعده أحمد آخر. بقي وحده أحمد الكبير وأحمد الأول والأخير.

جيمس كوك

القرن السادس عشر كان عصر الاكتشافات الجغرافية وكان عصر المغامرات الكبرى أيضاً ولكن المغامرين قضوا قرنين على الأقل بعده وهم يغامرون ثم يغامرون ويكتشفون كل يوم جديداً ثم يكتشفون! موج البحار كم حمل؟ الغابات العذراء كم رأت؟ الشواطئ كم شهدت؟ وأما الإنسان، إنسان الأراضي التي اكتشفت فكم قاسى وخاف وجاع وذبح!!.. لم تكن الاكتشافات لوجه العلم. لم تكن طراداً مع مثل أعلى. كانت جشعاً ينساح فوق المحيطات، نبع مجنون من السيطرة شربت منه أوروبا فلم تفق من خماره. فتشت عن أخفى زوايا الدنيا لتنصب عليها أعلامها وتضمها إلى الممتلكات...

كانت إنكلترا في الطليعة الجشعة. جندت رجالها. أسطولها. تجارتها. أسلحتها والمدافع حتى العلماء لمد بساط الإمبراطورية في أنحاء الأرض. أطلقت أوروبا على هذه العملية اسم التمدين. وجعلتها «رسالة الرجل الأبيض»!

بين من تجند لهذه المهمة، وما أكثرهم، فتى سوف يعرفه العالم فيما بعد باسم جيمس كوك. ولد سنة ١٧٢٨ في يور كشاير وكان فلاحاً وابن فلاح وواحداً من تسعة إخوة فقراء. عمل في دكان بقال ليعيش ومنذ نزل إلى السفن في المرفأ لم يخرج من البحر.

صار الموج مهده المفضل والأخير وقرأ كتب الجغرافيا والرحلات ليعرف المزيد عن مملكة الماء. وقد حاول مرة سرقة زورق ليسافر به إلى أراضي الجنوب (أستراليا). فأوهم الناس أنه مسكون ليهجروه فلما حاولوا — على

العادة تلك الأيام ــ أن يحرقوا الزورق لإحراق الجن فيه فوجئوا بفتى يهرب من الزورق. وكان الفتى جيمس كوك! وهذا الرجل قضى ــ في البحار ــ ثلاثين سنة أو حولها. حتى جاءته الفرصة في المغامرة حين عهدت إليه الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٧٦٨ بمهمة فلكية اكتشافية في البحار الجنوبية، جنوبي المحيط الهادي الذي لا يعرفه. كانوا يظنون أن لا شيء هناك سوى اللانهائيين: السماء والماء. وكان كوك قد دخل الأسطول سنة ١٧٥٥ وعرف خلال مراسه الطويل مع البحر بالدقة البالغة. برسم الخرائط الصحيحة للبحار بالدراية العميقة في رؤية الفلك. طاف أنحاء الأرض المعروفة. اشترك في المعارك البحرية. درس حوض نهر سان لوران رسم خارطة السواحل في نيوفاوند لأنه صار خلال ذلك من قباطنة الأسطول البارزين. ولم يكن بحاجة لكبير وقت لكي يقبل المغامرة البحرية المثيرة...

السفينة التي اختارها للإبحار كانت بمقاييس ذلك الزمن كبيرة. تحمل ٣٧٠ طناً ولكنه حمل عليها قرابة المائة من علماء النبات والحيوان والفلك وبعض الأطباء مع البحارة، عدا الخدم. كان عليها بعض المدافع... وطعام كثير يكفي سنة وبعض السنة. وخرج كوك من بلايموت ميمماً شطر الجنوب إلى البرازيل. ساير شواطئ القارة اللاتينية حتى جزر النار التي اخترقها ماجلان قبله بمائة وخمسين سنة ثم انطلق في محيط المحيطات: المحيط الهادي!... جزر تاهيتي التي وصلها بعد شهرين كانت معروفة. ولم يجد كوك صعوبة في نصب مرصده ودراسة المهمة الفلكية التي حددت له هناك ولا المهمة النباتية الحيوانية. لكن المغامرة الصعبة كانت في البحث عن القارة المجهولة...

الأقاويل تقول إنها هناك ولكن أين؟ والمحيط يملأ نصف الكرة الجنوبي ويزيد؟.. واتجه بسفينته إلى الجنوب وأبعد. ولكنه وصل نيوزيلاند التي كشفها الهولنديون قبله بمائة سنة على أنه رسم خرائطها. ويئس من الجنوب فاتجه إلى الغرب... لم يكن يعلم أنه يبحر في الصيف، موسم العواصف

والمطر في تلك البقاع. وقاست السفينة ومن في السفينة من هذا الموسم الكثير. الموج ينهد كالصخور على الجوانب والأشرعة راعشة مشدودة حتى التمزق. وظهر المركب كالبحر ماء في ماء. والريح تعول تعول ... واختبأ الجميع إلا كوك الذي لازم صواري السفينة وظلت عيناه تطوفان في الأفق بالمنظار بين آونة وأخرى كما لو كان ينتظر أو يستعجل رؤية أرض أي أرض ... وظهر له في الأفق سواد أرض. واقترب. إنها بالفعل أرض جديدة ... أول ما فعله بعد ذلك أن نصب عليها العلم الإنكليزي! كما فعل الأمريكيون حين نزلوا القمر إنه رمز امتلاك الأرض. وحين صعد الصخور بعد ذلك وتأمل الشاطئ الذي نزل عليه وقع في ريبة من الأمر. أهي جزيرة هذه أم بر متصل حتى جليد القطب الجنوبي كما يذكرون. وقرر على طريقة فاسكو دي غاما قبله الذي طاف حول أفريقية أن يلاحق شواطئ هذه الأرض ليرى أين تنتهي. ترك العلم مرفوعاً وألقى بالأشرعة للريح.

أبحر أكثر من ثلاثة آلاف كم حول هذه الأرض حتى اقتنع أنها لا يمكن أن تكون متصلة بالقطب وجليده. وتوقف خلال ذلك هنا وهناك يرسم ببراعته المعهودة شواطئ هذه القارة التي انفتحت عليه. بينما كان أصحابه في السفينة مفتونين حتى الذهول وحتى الجنون بهذا العالم الجديد الذي يرون. كل ما فيه من حيوان ونبات كان مختلفاً عما يعرفون ويصنفون. حتى الإنسان كان نوعاً آخر ... صحيح أنه أسود البشرة لكن يا بعد ما بينه وبين الزنج! إنها إذن القارة الخامسة في الدنيا ...

كانت الأخبار خلال ذلك قد وصلت إنكلترا. وكان الناس هناك يتابعونها متابعة العالم منذ خمس وعشرين سنة لمن نزلوا القمر.. وثقل على أهل سفينة كوك بعد أربع سنوات من التسكع البحري ما بين أيديهم من فتوح وأخبار ومدهشات. صارت أكثر من أن تبقى لديهم أكثر مما بقيت. وألحوا على البحار القديم بالعودة إلى إنكلترا.

يوم وصل عام ١٧٧١ كان كوك قد أضحى أحد الأبطال الإنكليز. استقبل ولا استقبال العائدين من القمر والمريخ!

عاد كوك بعد ذلك كرة أخرى في مهمة ثانية. قطع في البحار ما يزيد على ١٢٠ ألف كم ليؤكد أنه ليس ثمة في المحيط الهادي من قارة جنوبية ولا ما يكتشفون. قضى ثلاث سنوات أخرى على الماء الذي صار بيته ووطنه. وتطوّع بعد ذلك في مهمة ثالثة سنة ١٧٧٥: هي أن يبحث عن ممر يربط المحيطين الأطلسي والهادي عبر أمريكا الشمالية. ليس ثمة ممر. وفشلت المغامرة. لم يجد حتى في المناطق المتجمدة مثل هذا الممر. في طريق العودة كان أول أوروبي يرى جزر ساندويتش وإنما سماها كوك باسم اللورد ساندويتش الذي أنفق على رحلته. وهي اليوم جزر هاواي

في سنة ١٧٧٨ وصل شواطئ أمريكا الشمالية ورسم عدداً من أدق الخرائط. ثم عاد مرة أخرى إلى جزر هاواي ليكتشفها مطالع سنة ١٧٧٩. استقبله سكانها المحليون على أنه إله. أساطيرهم كانت تقول إن إلهاً سوف يهبط عليهم فوق أرض متحركة بيضاء الشجر. وتعالت الطبول واشتعلت النيران وخاض نصف الشعب في الماء في مراسم الاستقبال...

لكن سرعان ما أدرك أهل هاواي أن هؤلاء الوافدين ليسوا آلهة ولا أنصاف آلهة ولا شيئاً منها. أدركوا أنهم بشر. ومن البشر العاديين... وأحياناً من حثالة الناس.

وأطلق واحد منهم سهمه على بعض البحارة فبادر كوك برصاص غدارته فقتله... لم يدرك أنه قتل ابن شيخ السكان وتقدم الشيخ بكل بساطة فقتل القبطان... لم يدرك بدوره أنه قتل المكتشف الأول والمغامر الأبرز على البحار في كل العصور...

فرخشنيط

أرأيت لو حدثتك عن جماعات مجهولة الاسم والأشخاص والقواد، غامرت في بلد تجهله تواريخنا حتى النكران الكامل، في زمن ضائع من الأزمان امتد أكثر من قرن. أكنت مصدقي؟

إنها أخبار قد تضعها ــ ومعك الحق كله ــ بين الحقيقة والخيال، وقد يغتلي فيها ارتيابك حتى تتقراها يداك باللمس وتسأل فيها أهل الذكر. ومع ذلك فهي حقيقة تاريخية لا ريب فيها وإن طوى مغامراتها الكبرى نسيان القرون! وسأتلو عليكم منها ذكراً...

نبدأ من فرخشنيط؟ مؤكد أنها النسيان كله أو بعضه فمن ذا الذي يعرف هذا الاسم اليوم أو يذكره؟ لكنه أول الطريق إلى هذه القصة المثيرة التي امتدت قرناً من الزمن في غفلة من التاريخ والناس، وكان لها أبطالها ومعاركها الرهيبة ورنين السيوف على الوديان الصخرية وفي ظلمة الغابات!

وقد لا أزيدكم في فرخشنيط علماً إن قلت إنها في جبل القلال فهو مجهول آخر من المجاهيل. لكنكم تعرفون دون شك نيس ومونت كارلو والشاطئ اللازوردي الأنيق... إن هذه هي تلك. منطقة بروفانس: نيس والسافوا إلى جنوا وجبال الألب تلك وممراتها وحوض الرون حتى جنيف ولوزان والبحيرة الساحرة كلها كانت ما بين سنتي ٢٧٧ ــ ٣٦٥ للهجرة أي بين سنتي ٨٩٠ و٩٧٥م بيد العرب وبيد جماعة مغامرة لا يعرف أحد عنها شيئاً رغم أنها دخلت وتوسعت وعاشت على أسنة الرماح هناك...

في سنة ٢٧٧ دفعت الرياح العاتية إحدى سفن غزاة البحر من أسطول

جزيرة مايورقة (في جزر الباليار اليوم) إلى ساحل الريفييرا الفرنسية. الذين يعرفون ذلك الساحل اليوم يعرفون دون شك خليج سان تروبيز الحالم وشمسه الدافئة الذهبية. هناك نزل الغزاة. كان المسلمون قبل ذلك قد هاجموا مرسيليا والسواحل حولها حتى مصب الرون ما بين سنتي ٢٢٣ ــ ٢٣٤ للهجرة/٨٣٨ ــ ٨٤٨ أربع مرات (كان الخليفة المعتصم والواثق والمتوكل في بغداد وكان الأمر في الأندلس للأمير عبد الرحمن الثاني).

وأدرك الغزاة خطر الموقع فوراءه جبال بعد جبال مد البصر والبر مهيأ للغارات الداخلية ما شاءت لهم السيوف والغابات الكثيفة الكثيفة ملجأ لا آمن ولا أخفى... سموا المنطقة جبل القلال. وعلى قُلة منه حصينة تهوى صخورها هوياً على الغابة والسهل أقاموا مع الأمداد التي أتتهم من شرقي الأندلس ومن جزر الباليار قلعة حصينة دعوها على اسم القرية المندثرة التي كانت بالقرب منها فرخشنيط (فراكشنت!) ما تزال آثارها باقية. الاسم مشتق من اسم شجر البلوط الذي يملأ السهل والجبل هناك ولكن من فيها كانوا كشجر البلوط العريق متانة ومقاومة وسعة ظلال...

من هم؟ من كان يتزعمهم؟ كيف كانوا يديرون الأمور؟ ليس يعرف أحد ولكنا بلى! نعرف أنهم أضحوا بسرعة رعب المنطقة. واتخذوا فرخشنيط قاعدة حرب وانطلقوا منها كالشرر المحرق المتفجر في كل اتجاه. شكلوا إمارة إسلامية كانت مظلتها الإمارة الأموية في الأندلس ولعلهم كانوا يتبعونها. ولكنهم عبروا جبال الألب بوعورها وثلجها إلى سهول لومبارديا الإيطالية. صعدوا في حوض الرون إلى بورغوندية. انساحوا في منطقة الفاليه السويسرية حتى البحيرة الكبرى وحتى بحيرة كونستانس وحتى حوض نهر الراين... وكانت لهم نيس التي سكنها الكثير من المسلمين وكان لهم بها حي خاص بهم Canton des Sarasims. واحتلوا مدينة غرونبل ولهم فيها كتابة منقوشة تعود إلى سنة ٣٤٣/٩٥٤ وأخذوا منطقة سافوا ففيها واد معروف باسمهم إلى اليوم Vallée

des Sarasins . وتحكم المسلمون في ممرات جبال الألب فلم يكن يمر بها أحد دون إذنهم ودفع الرسوم . وأقاموا القلاع والحصون في منطقة أسافل الجبال الألبية (بيه مونت) واعترف بهم أوتو الكبير إمبراطور الجرمن وعقد معهم معاهدة تحالف ...

وقد أسهمت هذه الإمارة ، وإن لم يسجل ذلك المؤرخون الإسلاميون ، في صد حشود البرابرة المجر سنة ٣٤٣/٩٥٤ . استنزفت قواهم . دافعت عن الحضارة في أوروبا . ومكنت إمبراطور الجرمان من الإجهاز على قواتهم الرئيسية في لينخنفيلد قرب مدينة أوكسبورغ في السنة التالية . واستكان المجر منذ ذلك الحين واستقروا حيث هم على نهر الدانوب . لكن أوتو الأكبر تحول بعد ذلك إلى أمارة فرخشنيط الإسلامية واشتبك معها . وأرسل السفارات إلى الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر في الأندلس تطلب تدخله لوقف اندفاع غزاة البحر التابعين له إلى هذه الإمارة .

وفشلت الوساطات . فدخل إمبراطور الجرمن مع الإمارات الإيطالية ومع البابوية في حلف صليبي ضد الإمارة الإسلامية . ووقفت الإمارة تدافع عن مواقعها قطعة قطعة طوقت فرخشنيط واضطرت للاستسلام سنة ٣٦٥/٩٧٥ وسيق الأسرى فيها للعمل عبيداً في مناجم الفحم والحديد ... حتى آخر العمر . لكن الجيوب الأخرى ظلت تناضل وتناضل . تولى مطاردتها قائد يدعى جيرولدس حتى سنة ٣٩١/١٠٠٠م ... هل انتهت هذه المغامرة الإسلامية ؟

لم تنته بانهيار الإمارة ! .. مجاهدون آخرون غزوا السواحل الفرنسية في محاولات متكررة لإحيائها غزيت عين الطيب سنة ١٠٠٣ وهاجم المسلمون مدينة أربون (ناربون) سنة ١٠١٩ ثم هاجموا جزر لاران أمام السواحل الفرنسية الجنوبية سنة ١٠٤٧ ... لكن أوضاع العالم الإسلامي في تلك الفترة بالذات لم تكن تسمح بالعودة ... ولا بمثل مغامرة أولئك المغامرين الأولين .

المشرق كان يغزى الغزو الكثيف من السلاجقة. والخلافة الفاطمية في مصر كانت مقبلة على السنوات السبع العجاف التي ألجأت الناس إلى أكل العشب والخشاش من الحيوان وألجأت الخليفة بعد العز العريض إلى المسجد يأوي إليه وليس معه سوى خادم واحد! وأما الأندلس فكانت غارقة في الفوضى السياسية. عصر ملوك الطوائف فيها كان في الأوج... وكانت أوروبا تتهيأ بكل قواها لشن الحروب الصليبية ولم تنطو محاولات إحياء الإمارة فقط ولكن انطوت حتى أخبارها عن المؤرخين والناس فغابت في النسيان.

ومن الطريف أن نعلم أن أسرة غريمالدي الأسرة الحاكمة في موناكو ترجع إلى عهد تلك الإمارة. جدها الأعلى جيلين غريمالدي الجنوي الأصل نال هذه الإمارة من أمير البروفانس الكونت غليوم لشجاعته في الحرب ضد مجاهدي فرخشنيط!

وبقيت بيد أحفاده إلى اليوم.

ليفينغستون

حتى مطلع القرن الماضي لم يكن الأوروبيون قد عرفوا من أفريقيا السوداء أكثر من أطرافها . العيون الزنجية كثمار الكرز الناضجة عبر الأدغال كانت ترهبهم . الغابة كانت تشكل حاجزاً لا أكثف ولا أرهب بينهم وبين قلب القارة العذراء . وتمسكوا بالسواحل . كل فريق اختار مكان القضم السهل ، وأخذ يحاول التوغل . القسس . الرحالة . المغامرون كانوا هم الطلائع في التسلل . ثمة أسرار وشعوب وحضارات وسحرة وطبول ورماح وراء هذا الحائط الاستوائي الضخم . ولكنهم إنما كانوا يعنون بالمواد الأولية والثروات واستخدام البشر ...

وكان الرواد الأوائل ينطلقون تعمر جباههم والصدور أفكار شتى وتستثمر دولهم مغامراتهم ليركض وراءهم حذاء الجندي وأسنان المستثمر ! من هؤلاء الرواد كان دافيد ليفينغستون ... الرجل الذي اجتمع فيه المبشر المهووس والمستعمر التاجر والطبيب الإنساني والمغامر الشجاع في خليطة عجيبة . أسرته في اسكوتلندة كانت شديدة الفقر منذ ولد فيها سنة ١٨١٣ . ولم يكن في بداياته ما يدل على أن كلمة واحدة في التاريخ سوف تكتب عنه . أبوه العامل في بعض المحالج جعله أجيراً في دكان بقال . وأراد أن يتعلم فقاسى المر في هذا التعلم . كان العلم في ذلك الوقت ترفاً ليس في متناول الفقراء . وشغلته كتب الرحلات والتاريخ والحيوانات الغريبة وقرأ منها الكثير لكنه كان يدرس الدين ليكون قسيساً ويكسب خبزه في مكان ما من الأرض .

وكانت الصين في خياله لأن أحد الناصحين قال له إن مستقبلك هناك . وبعد حين تدخل ناصح آخر فأقنعه أن حاجة الفقراء إلى الدواء أهم

من الرغيف ودرس ليفينغستون الطب . لكنه لم يستطع السفر إلى الصين لأن حرب الأفيون قامت في تلك الفترة بينها وبين إنكلترا . فانخرط في جمعية لندن التبشيرية ليكون طبيب إحدى البعثات في بتشوانالاند ... مغامرة ؟ قد تكون ! ولكنه عمل هناك عشر سنوات وقارب الأربعين وهو ليس أكثر من طبيب بين الأطباء . لكن القسيس الكامن فيه والمستعمر المغامر كانا يكبران في داخله ويكبران حتى استوليا على خياله . صارا هوساً ، حلماً يزوره باستمرار . وقرر المغامرة ليفتح أفريقيا أمام التجارة الإنكليزية والتبشير . قام بمغامرته الأولى سنة ١٨٥١ فعبر صحراء كالاهاري ووصل بحيرة نجامي ... لم يكن عبور الصحراء هو المثير في رحلته ولكن سكانها قبائل البوشمن الأقزام ، الصفر اللون ، الفطس الأنوف المسطحو الأذان الناتئو الجباه والأذان والذين يعيشون على القنص ويسكنون الكهوف . بعد سنتين تابع الطريق في قلب القارة دوماً حتى نفذ إلى لواندا على الساحل الغربي ...

على الطريقة الأوروبية المعهودة دوماً ، كان يسير في قافلة من الزنوج الحفاة هذا يحمل الصناديق وهذا يقطع أغصان الغابة وذاك يسوق الدواب ورابع للحماية وخامس وعاشر وعشرون ... كلهم في خدمة « الرجل الأبيض » واقترح عليه بعضهم أن يركب البحر في العودة . ولكنه رفض ... لقد وعد هؤلاء الذين ساقهم معه أن يعيدهم إلى قراهم وهو رجل يرعى الله في أعماله ويحترم كلمته ... وعاد من الطريق نفسها .

وراقه نجاح المغامرة . أخذت الغابة الأفريقية تستهويه بأسرارها . تأسره بالثعابين وألوان الطير والأسود . تثيره قطعان القردة والفيلة والزراف تفر أمامهم على صوت بندقيته الغريب . عاد ليفينغستون سنة ١٨٥٥ فتبع مجرى نهر زامبيزي حتى الشلالات القائمة عليه . سماها شلالات فكتوريا ! فقد كانت الملكة الشابة في تلك الفترة رمز الإمبراطورية الإنكليزية ومجدها المقبل وعاد

فوصل الساحل الشرقي لأفريقية عند كويليمان في موزامبيق سنة ١٨٥٦. وبذلك قطع أفريقيا في قلبها من الساحل إلى الساحل.

حين عاد لينفينغستون إلى إنكلترا بعد ذلك سنة ١٨٥٦ استقبلته الصحف والمؤسسات العلمية بالاحترام والطبول. ألم يضف إلى الامبراطورية أبعاداً جديدة من الأرض؟ وكتب الرجل مغامراته في كتاب سماه: رحلات تبشيرية واكتشافات في جنوب أفريقيا... وعاد إلى أفريقيا وهو قنصل لبريطانيا في كويليمان في موزامبيق! وأوفد في حملة إلى منطقة زامبيزي يتابع كشوفها وإلى منطقة بحيرة نياسا. وشغل بهذه المغامرة خمس سنوات فقد كلفته الحكومة البريطانية أن يكتب لها تقريراً عما إذا كان استعمار المنطقة ممكناً. لكن هذه الفترة كانت فترة إنقلاب في داخل ليفينغستون. فترة تحول: انتصر القسيس فيه على المستعمر. وبرز الإنسان على حساب الأوروبي الجشع... بعد أن قتلت الملاريا زوجته. وازداد شعوره بفظاعة تجارة الرقيق. وأخذت تعاسته تتضخم. وصار أشد تديناً. أكثر صوفية. أعنف انفعالاً بوحشية النخاسة الأوروبية والنخاسين. وأقسم أمام الله أن يفضح هذه التجارة الملعونة أمام العالم كله. وعاد إلى إنكلترا سنة ١٨٦٤ فقضى سنتين يدعو ضد هذه التجارة البشرية. إنها عار على الإنسان!

لكن إقامة ليفينغستون في إنكلترا، بين الاحترام والتقديس أنسته بالتدريج تعاسته وإن لم تنزع منه الانفعال بهمجية الرق. وعاودته نزعة المغامرة من جديد. صرخت في شرايينه مع أنه تجاوز الثالثة والخمسين حين كلفته الحكومة البريطانية بكشف منابع النيل. فقبل المهمة وسافر إلى الهند فاختار الجماعة التي شكل منها قافلته ثم عاد فنزل في زنجبار وهو في منتهى التفاؤل. وأعطاه السلطان ماجد بن سعيد هناك كتاب توصية وانطلق الرجل بقافلته في الغابات...

لم تكن هذه الغابات كالتي عرفها من قبل. كانت موحشة الآفاق حتى الموت. مرعبة حتى لترتجف منها الظلال، بدائية بدائية تحسبها على عهدها في الخلق الأول، أمطار الاستواء لا تكاد تنقطع فيها وزمجرة الضواري تثور لتهدأ وتهدأ لتثور ... وأوغل ليفينغستون ثم أوغل وقطع الأنهر والمستنقعات التي تشرق بالوحل. والوديان كأشداق الشياطين. والأدغال تختلط فيها الأفاعي مع تشابك الأغصان الأبدي. ولا تسل عن النمل وعن البعوض وذبابة مرض النوم.

ولا يكاد ينتهي من إضرام النيران حول المعسكر لإبعاد الوحوش حتى يفاجأ في الصباح بعيون زنجية تسترق النظر إليه ثم بالقبائل تطوقه بالطبول والحراب. ومضت سنة وأخرى وثالثة ورابعة والقافلة ضائعة في التيه الغابي. أهي قافلة؟ أبداً. لقد تركه رجاله منذ السنة الأولى فلم يبق معه من ٣٦ شخصاً سوى أربعة. ونفقت الأعداد المحدودة من الدواب معه، بعضها من الإرهاق وبعض اختطفته الوحوش. اشترى غيرها واستأجر بعض الرجال. ولكن المشلكة الكبرى كانت في القوت. كتب: «اليوم رأس السنة. ليس عندي ملح ولا سكر. إني جائع دائماً وأحلم بالخبز ولا أعرف كيف أنام وصور اللحم ورائحة الشواء أمامي. كل شيء حولي له لون الطعام ورائحته. إنها حالة من الهذيان ..».

وكانت الكارثة يوم هرب اثنان من رجاله ومع أحدهما صندوق الأدوية وفيه الكينا ... فأحس أنه قد حكم بالموت ... وأخيراً وصل بحيرة تنغانيقا من الجنوب ومع أن الحمى كانت ترعده فقد نزل البحيرة وأصر على أن يطوف حولها فتابع المسير يبحث عن منابع النيل ومضت سنة أخرى ..

لم يكن يعرف أن المرحلة طويلة جداً وأن الأمراض تلتهم صحته وتهده هداً الملاريا. الهيضة (الديزانطريا) السعال وكان مع ذلك ما ينفك يسأل كالذي يهذي: ألم تر بحيرة تخرج منها أربعة أنهار!

كان قد مضى عليه سبع سنوات في التيه الأخضر حين بعثت صحيفة

نيويورك هيرالد، رحالة آخر اسمه ستانلي يبحث عنه. وحين عثر عليه رفض ليفينغستون العودة ولكنه قبل كميات الطعام التي أتاه بها...

ولم يعش ليستهلك الكثير منها. مات راكعاً بجانب الفراش سنة ١٨٧٤ ولم يكتشف منابع النيل!

وحمل رجاله جثته المحنطة تسعة أشهر حتى سلموها إلى القنصل البريطاني في زنجبار فنقلها إلى لندن لتدفن في كنيسته وستمنستر أبعد ما يكون عن الغابة الأفريقية التي أحب!

البساسيري

منذ حوالي ٩٧٥ سنة أعار رجل زنده وجيشه ومكانه الرفيع لعملية من أكثر عمليات التاريخ في وقته إثارة وشأناً وأثراً . ونجحت العملية واستمرت قرابة السنة ... لو أنها استمرت سنوات ، ولم تتدخل بها الظروف لتغير وجه التاريخ الإسلامي أو على الأقل لكان للمشرق الإسلامي تاريخ آخر . ولدخل الرجل هذا التاريخ من أوسع أبوابه ... أما وقد انتهت العملية إلى الفشل بسبب دخول عوامل أخرى فيها فمن ذا الذي يذكر اليوم أبا الحارث أرسلان البساسيري ؟ ومن ذا الذي يتحدث عنه إلا كواحد من ألوف ومن عشرات ألوف الفاشلين ؟

قصة الرجل في مطلعها هي القصة المكرورة لجميع المماليك الذين عبروا مسرح التاريخ الإسلامي أو نفذوا في مسامه . كان مملوكاً تركياً ولذلك عرفوه ككل المماليك باسم أرسلان بن عبد الله وأما البساسيري فنسبة إلى سيده من بلدة بسا في فارس . ودخل الجندية كغيره بعد أن صار إلى بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي . وتنقل في الخدمة حتى صار مقدم الجند الأتراك ببغداد أيام الخليفة القائم بأمر الله أبي جعفر وتلقب بالمظفر ... كل ذلك عادي ومن المصائر التي كانت تجري، كل يوم للكثيرين من أمثاله . ويقولون إنه طار اسمه وتهيبته أمراء العرب والعجم ودعي له على منابر العراق والأهواز وتجبر وقبض على جماعة رفض الخليفة الإذن بقبضهم فأسر بعضهم وصلب بعضاً ... وهذا بدوره أيضاً مما عرفت تلك الفترات الكثير من مثله . فليس فيه مثير .. حتى الخلاف بينه وبين الوزير وخروجه من بغداد مستوحشاً

إلى بعض قلاع وادي الفرات كان أمراً مألوفاً فطالما جرى مثله قبل البساسيري وبعده . إنما بدأت المغامرة المثيرة بعد ذلك .

ففي تلك الفترة بالذات سنة ٤٤٧ للهجرة ١٠٥٥ للميلاد ، كانت الخلافة العباسية في بغداد قد أضحت واحدة من أربع قوى في المشرق . وإذا تركنا جانباً القوة الرومية البيزنطية . كانت هذه الخلافة مشغولة الخاطر موزعة العينين في اتجاهين : في المشرق كان يسير إليها السلاجقة وفي الغرب كانت تهددها الخلافة الفاطمية من مصر . واستسلم العباسيون للسلاجقة . إنهم على الأقل لن يدعوا الخلافة وتستطيع بالحرمة أن تحتويهم ، أما الفاطميون فقد مضى على أخذهم مصر والشام قرابه مائة سنة ولم ينفع خليفة بغداد أن يكتب سنة ٤٠٢ محضراً يقدح في نسبهم وأنهم ليسوا لفاطمة وأن يأخذ عليه خطوط القضاة والأئمة والأشراف وأن يقرأ ذلك على الناس . ولا أن يكرِّر المحضر كرة أخرى سنة ٤٤٤ ثم يكرره ثالثة سنة ٤٤٨ . الناس عرفوا أنها نشرات سياسية .. فمرت كالماء الفاتر ...

لكن حين رأى الفاطميون اتفاق الخلافة العباسية مع السلاجقة وعزم هؤلاء على المسير إليهم قرروا المبادرة بأخذ بغداد . إنهم أحق — في رأيهم — بعرش بغداد . هكذا بدأت قضية البساسيري ! وبدأت مغامرته ... كان هارباً من سلطان السلاجقة في الرحبة ، على الفرات وقد نهبت أمواله وحرقت دوره في بغداد ، حين أقام الاتصال مع الفاطميين يدعوهم لأخذ بغداد إن أعانوه . الحملة السحرية التي استخدمها هي إزالة بني العباس وما يتبع ذلك من رد الفاتح السلجوقي وثارت لهفة الخليفة المستنصر الفاطمي . وخرج الداعية الداهية : المؤيد بالله إلى البساسيري يحمل مليونين وثلاثمائة ألف دينار . لم يترك في خزائن القصر شيئاً . أليس الثمن بغداد مع كل تراثها . ووصول الخلفاء الفواطم أخيراً إليها ؟ .

لقد زاد في إغراء الفاطميين أن أول وقائع البساسيري مع السلاجقة

كانت نصراً مؤزراً له . لقد هزم موفد السلطان وابن عمه مع حلفائه في سنجار لم يفلت من سيفه سوى مائتي فارس . ودخل الموصل فاتحاً وأقام الدعوة للخليفة المستنصر !

تلك أول مواسم الخير . والمواسم إلى أقبال .

كان المال الفاطمي في الوقت نفسه ، يفعل فعله فتخاذل الكثير من السلاجقة حتى ابراهيم ينال بك أخو السلطان السلجوقي فاضطر السلطان لملاحقته وترك الخليفة لمصيره مع أنه كان الحامي له . ووجد أبو الحارث البساسيري طريق بغداد مفتوحاً فتملك العراق بلداً بلداً حتى وصل العاصمة ، والخوف قد ألجم الناس جميع الناس . حتى الخليفة لم يجرؤ على مدافعة البساسيري حين أقام الصلاة يوم الجمعة في جامع المنصور وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر ! وعقد عسكره الجسر إلى الضفة الشرقية : الرصافة فخطب يوم الجمعة التالي ...

بلى اضطر البساسيري لقمع المشاغبات هنا وهناك ، وقتل جماعة من الأعيان ... لكن الأمر استتب له . يقولون إنه وصل باب القصور التي يسكن بها الخليفة فركب القائم جواده وعلى كتفه البردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء وحوله جماعة بني العباس والخدم بالسيوف المسلولة ... فابتعد ونادى حاجب الخلافة على شريك البساسيري في القتال قال : قد أتاك الله منزلة لم ينلها أمثالك . الخليفة يطلب منك الأمان ... وأمنه هذا الشريك لكنه سلم وزير الخليفة ابن المسلمة إلى البساسيري ... أما دور الخلافة فنهب منها ما لا يحصى . وأرسلوا إلى القاهرة عمامة الخليفة القائم مع كتاب منه شهد فيه بالعدول أن لا حق لبني العباس في الخلافة مع وجود فاطمة الزهراء . وأولاد فاطمة . وأرفق الكتاب بكل شعائر الخلافة ، القضيب والبردة والذخائر النبوية ...

حسب مصطلح تلك الأيام، انتهت شرعياً وعملياً الخلافة العباسية ووصلت مغامرة البساسيري غايتها...وسيق الخليفة في هودج إلى مدينة عمانة،نزل فيها على بعض العاطفين عليه.بعد أسبوعين كان عيد النحر فركب البساسيري إلى المسجد الجامع وعلى رأسه ألوية المستنصر بعد أن أجرى الأرزاق وتوسع في الإحسان فكسر منبره وقال هذا منبر نحس أُعْلِنَ عليه بغض آل محمد عليهم السلام. وأنشأ منبراً آخر باسم المستنصر ثم أخرج الوزير السجين فطوف به في جبه صوف وطرطور ثم ألبسه جلد ثور طري وعلقه بكلابين حتى مات... أما القاهرة فكانت أفراحها تسيل في الدروب. كانت تغني مع نسب الطبالة:

يا بني العباس ردوا ملك الأمر معد
ملككم كان معاراً والعواري تسترد...

أثناء ذلك كان البساسيري يأخذ من العراق واسط والبصرة ويحكم سعيداً شهراً وشهراً وشهراً. عشرة أشهر إلى أن فرغ السلطان السلجوقي حامي الخليفة العباسي من أعدائه. وركضت النذر إلى البساسيري بمسيره إلى بغداد. كانت جيوشه جرارة وفرسانه يشربون النار. ومصر بعيدة بمكانها وقواها. ودخل طغرلبك بغداد وبالغ في احترام الخليفة فسماه سلطان المشرق والمغرب في حين فضل البساسيري الانسحاب إلى جنوب العراق... ولكن السلطان السلجوقي سير العساكر وراءه. وفيما كان البساسيري يسقط في المعركة عن فرسه ويقتل ويحمل رأسه إلى بغداد كان السلطان يأخذ بلجام بغلة الخليفة العباسي ويدخل به قصره في بغداد... ويتلقى منه المكافأة سيفه الأخير...

وكان خروج الخليفة منها وعودته ما بين ذي الحجة وذي الحجة!... وكان ذلك آخر سعادة الدولة الفاطمية!! وبدأت بعدها على الفور عملية السقوط!!.

من فرج بن فرج إلى محمد بن أمية

الذين يكتبون تاريخ الأندلس يجعلون الفصل الأخير في هذا التاريخ خروج أبي عبد الله الصغير من غزناطة، ثم يسدلون الستار! ويتصور الناس أن كل شيء قد انتهى هناك بهذا الخروج. قلائل جداً هم الذين يتساءلون: وماذا عن الشعب المسلم هناك؟ وماذا عن مؤسساته ونظمه وحياته؟ ويكتفي المتسائلون بأن محاكم التفتيش قد أبادت كل ذلك، وفي سنوات معدودة... فماذا لو ذكرنا أن محاكم التفتيش هذه بقيت تمارس طقوسها في التعذيب المدمر أكثر من قرنين وماذا لو ذكرنا أن هذا الشعب بقي يمارس في السر طقوسه في الدين والعربية والحياة الاجتماعية أكثر من ثلاثة قرون. وإن كانت له ثوراته الراعفة. وكان له زعماؤه وله الشهداء الأبطال خلال هذه القرون؟

لن أقف بك عند ثورة البيازين سنة ١٤٩٩، بعد سقوط غرناطة بسبع سنوات ولا عند ثورة البشرات ١٥٠١ ولكن لنخترق السنين خمساً وسبعين سنة أخرى بعد غرناطة... ولنقف عند سنة ١٥٦٦... العرب المسلمون في هذه البلاد كانوا مجتمعاً كاملاً. وكانت التدابير الإسبانية تهدف إلى تدمير ذلك المجتمع وصار اسمهم الموريسكيين أو (المغاربة). كل العهود التي قطعت لهم عند تسليم غرناطة نقضت، كل العهود. أرغم الآلاف منهم على قبول العماد والتنصر. هجروا قسراً من ديارهم. حظر عليهم امتلاك الرقيق. حرموا من حمل واستعمال الأسلحة وفرض عليهم تسليمها خلال خمسين يوماً. ألغيت حصانة الكنائس التي تؤويهم. صودرت بالتدريج مساحات من أراضيهم قطعة قطعة. منعوا من التنقل. حتى المحاكم اعتبرتهم سلفاً مذنبين حتى

يثبتوا براءتهم... أرأيت ما يفعل الصهيونيون اليوم في الأرض المحتلة؟ ولجأ الموريسكسون إلى المقاومة السرية . كانوا يدخلون غرناطة ويخطفون الناس لفك أسراهم... وانتشرت العصابات المسلحة الإسبانية تفعل الفعل نفسه! وارتعب الليل في غرناطة، وأقفرت الأزقة إلا من الأشباح . وخلت غوطتها... فالمغاني مزروعة . كالشوارع في كل صباح، بالأشلاء. وأخيراً أعلن الملك فرديناند منع العربية والإسلام نهائياً وبشكل حاسم وهدم الحمامات فلم يكن يستحم إلا المسلمون. وإبقاء أبواب البيوت المورسكية مفتوحة على الدوام وإلزام الموريسكيات بالسفور في الطرقات .

حدد لتطبيق هذه الأحكام . نهاية شهر ديسمبر سنة ١٥٦٧ ...

من قلب هذه المصائب، ومن قلب الشعب الموريسكي خرج المغامر الذي يقف في وجه هذا الطغيان كله . وأخذ الناس يتسامعون في تلك الفترة باسم فرج بن فرج . كان شاباً يعمل في الصياغة ولكنه من محتد كريم! أسرته كانت من بني سراج ذات الشرف التليد أيام بني نصر . ولم يكن فرج بحاجة إلى كبير جهد ليجمع من حوله الثوار فقد كانت الثورة كامنة في كل صدر . ترتعش بغضبها أطراف الشفاه ونهايات الأصابع . وبعث الثوار بثلاثة من أكثرهم ثقة ومحبة إلى إخوانهم في جبال البشارات يبلغونهم بقرار الثورة . ولأنهم ممنوعون من التنقل ولأن الحرب خدعة أخذوا لهؤلاء الأخوان الإذن لجمع مال يبنون به بيمارستاناً للمرضى الفقراء واللقطاء... وذهب هؤلاء يحددون لبعض الثوار مراكز التجمع على السواحل . وللآخرين سبل الاتصال مع سلاطين المغرب ومع الأتراك العثمانيين . المؤامرة كانت محكمة .

وحددوا للثورة يوم الرابع عشر من نيسان سنة ١٥٦٨ ، يوم الخميس السابق للجمعة الحزينة ولعيد الفصح... لكن بعض العناصر المتخاذلة كشفت المخطط للكاردينال ديسا رئيس المجلس الملكي (محكمة التفتيش) قبل عشرة أيام فاعتقل من اعتقل وهرب من هرب وتظاهر الباقون بتكذيب

الأخبار ونفيها ... وماتت الثورة إلى حين . المتخاذلون ذوو العيون الحجرية والذمم المهترئة موجودون في كل عصر . لكنهم لا يستطيعون إلغاء دورة الحياة ...

في السنة التالية كان الثوار يجتمعون في بيت بائع شمع مسلم اسمه عدل ويقررون مطلع سنة ١٥٦٩ موعداً للثورة ، وأبلغوا الموريسكيين خارج غرناطة فتجند معهم ثمانية آلاف كانوا يطوفون البلاد بحجة بيع البرادع . واتفقوا على إشارة واضحة يطلقونها من قمة جبل القديسة هيلانة فيتسلق ألفان منهم سور قصر الحمراء وجنة العريف . بينما تقوم الثورة في ثلاثة مواقع من حي البيازين في وقت واحد لكل منها علم مميز فحاملو العلم الأحمر يتجهون لاحتلال محكمة التفتيش وحاملو العلم الأصفر يحتلون السجن لتحرير المعتقلين وحاملو العلم الأزرق يتجهون إلى الكاردينال ديسا لقتله ... واتفقوا مع علي باشا والي الجزائر على المدد ...

وسارت الأمور كما يحب الثوار إلا في الليالي التي سبقت رأس السنة . نزلت الثلوج على الجبال ثم نزلت ونزلت وسُدت الطرقات فهي جدران من الجليد . وتجمدت الأطراف من الصقيع وحيل بين آلاف الثوار وبين الوصول إلى الأسوار ... ووصل فرج بن فرج في مائتي مقاتل من أصحابه . كان في الموعد المحدد على الأسوار يفتح فيها الثغرات ثم يحفر سكون المدينة بصيحة لا إله إلا الله محمد رسول الله الله أكبر الله أكبر ... لكن المدينة ظلت ساكنة سكون الأموات . رأى أهل البيازين قلة المهاجمين فأغلقوا أبوابهم ولزموا الصمت المطلق ... وفشلت المحاولة وعاد الثوار يغرقون حنقهم وثورتهم ودماءهم الفائرة في الثلوج ابتلعتهم ببياضها البعيد فدبوا عليها في العواصف حتى البشرات ... وصحا الإسبان في الصباح ليجدوا كل شيء هادئاً في حي البيازين !! وفشلت الثورة مرة ثانية ...

الإنجاز الهام الوحيد الذي حققه فرج أن حركته أخرجت من السجن بعض السجناء وكان بينهم محمد بن أمية ... ومن محمد بن أمية ؟ هذا الفتى

كان من سلالة الأمويين في الأندلس وكان قد عمد وتنصر برغمه وصار اسمه فرناندو دي فالور أي كوردوبا !! ولهيبة الإسبان قبل العرب صار المستشار لبلدية غرناطة. ولكنهم كانوا يستريبون فيه. فروسيته كانت توحي إليهم بأنه لا بد متحرك ذات يوم. وسجن بسبب هذه الريبة. فلما فر من السجن لم يمض يومان حتى نادى به أهله أمير المسلمين ولحقت بهم بلدة في البشرات. كان ذلك يعني الثورة العريضة في البلاد...

واستاء ابن فرج. كان يعتقد أنه أحق بالإمارة لمكانة أسرته ولأنه الداعي للثورة ولاعتقاده أنه أكثر خبرة في القتال وكادت الفتنة تضطرم وتقوض كل شيء. ثم اتفق على أن يكون ابن فرج كبير الوزراء. Alguacil Mayor واستقر ابن أمية في قلعة لوخار حيث كان آخر ملوك بني الأحمر يستقر وسرعان ما تضرمت المناطق الأخرى بالثورة في عشرين بلداً آخر. وأحرق الثوار الكنائس التي كانت من مساجدهم في الأصل... وكان ابن فرج أعرض أملاً بكثير من ابن أمية فانطلق بخمسمائة فارس من شواطئ بيره حتى جبل طارق يدعو للثورة...

واستاء الأمير فعزله عن قيادة الجيش واستاء ابن فرج فتنازل عن منصب كبير الوزراء وعين ابن أمية ابن عمه جوهر الصغير بدلاً منه...

وضاعت آثار ابن فرج بعد ذلك. لا يعرف أحد أين انتهى. أما الثورة فصارت دولة في الأندلس... بعد سقوط غرناطة بخمس وسبعين سنة!

من محمد بن أمية إلى محمد بن عبو

إسبانيا، في النصف الثاني من القرن السادس عشر، لم تكن مملكة. كانت إمبراطورية مترامية الأطراف لم تعرفها الإمبراطوريات من قبل ووراثات ملكها شارلكان وابنه فيليب الثاني جعلتها ذات امتدادات أوروبية إلى إيطاليا والنمسا وهولندا بالإضافة إلى إسبانيا. وغزوات قوادها الفاتكين في أمريكا اللاتينية خاصة وفي الهند والفيليبين جعلتها ذات امتدادات عالمية. وتدفق عليها الذهب بالقناطير وتدفق ثم تدفق. وتكاثفت لديها الأسلحة والجيوش، والتصقت بالبابوية لتأخذ البعد الديني... فملكها يزعم لنفسه ملك الدنيا والآخرة...

في مثل هذه الظروف كان أكثر من الصعب على ثورة تقوم في الأندلس أن تقف للملك الإسباني وزبانيته من محاكم التفتيش ومن القادة المصبوبين بالحديد مع خيولهم، ومن القسس المهووسين بالصليبيات! ذلك كان قدر الثورة التي قادها هناك في جبال البشرات محمد بن أمية سنة ١٥٦٨. كانت مغامرة اليائس أكثر مما كانت ثورة الواثق بالنصر. ورغم التهاب العقيدة بكلمة الله والانسياح السمح على السيوف، والمآسي التي كانت تلف الناس عن الجانبين، فقد كان ثوار جبال البشرات حول ابن أمية يقاتلون وظهرهم إلى الحائط. يلتمسون النجدات من المغرب. من الجزائر. من القسطنطينية ولكنهم يعلمون ألا وزر لهم إلا سيوفهم... وكانت هذه السيوف أقصر، ولعلها أقصر بكثير، من أن تكتسب النصر النهائي... لكن عظمة هذه المغامرة أنها رغم كل ذلك قد تابعت الطريق...

محمد بن أمية نظم ثورته على أساس رفض التنصير، رفض الحكم الإسباني ومحاكم التفتيش. الحكم العربي إلى الأندلس يجب أن يعود بالقوة. دعا إلى استعادة الأسماء والألقاب الإسلامية. شن الهجمات على الإسبان حتى لم يعودوا يجرؤون على الذهاب إلى الكنائس. أرهب البر حتى لم يعودوا يخرجون إليه إلا جماعات مسلحة... لكن المعركة لم تكن متكافئة حشد الملك فيليب الثاني عشرات الألوف من الجند أتاهم بالمدد من صقلية، من نابولي، من لومبارديا. بل أتته النجدات على الأسطول من فرنسا. جند للقيادات أكبر القواد. وفتح خزائن الذهب. ووضع المركيز مونديخار ثم وضع الأركيدون خوان النمسوي، أخاه غير الشرعي على رأس القوات التي فتحت المنطقة حصناً بعد حصن. تدك كل شيء وتزرع الوديان والسفوح صراخ أطفال وسبايا وأشلاء... واستمرت الثورة سنة ثم سنة أخرى... وبرز فيها المزارع الثري شيبة الذي انقض على مقدمة الإسبان، وبرز القائد الزمار الذي اعتصم بحصن منيع وأهلك الإسبان في الممرات الضيقة المؤدية إليه حتى إذا تكاثروا فر مع أبنته البالغة ثلاث عشرة سنة. ثم انتهى بالموت مع ابنته في غرناطة وبرز ابن أمية نفسه حين قطع الجسر المؤدي إلى قلعته لانجرون عرين الثورة. وترك الجنود الإسبان يتابعون الراهب الفرنسي مولينا وصليبه على خشبة فوق الوادي ففريق ناج وفريق ساقط وهو يصرخ في هوة الوادي السحيق...

على أن الثورة في النهاية أصيبت بعدد من النكسات. سمع ابن أمية أن والد زوجته فاوض الإسبان وهادنهم. بينما كان هو ينتزع الرهائن منهم. عرف بالمذبحة التي تمت حول كنيسة جبليس حيث حشدت مئات الموريسكيات في العراء وحاول أحد الجنود الاعتداء على إحداهن ولم يدر أن خطيبها كان في زي النساء معها وحين قتل الإسباني دبت الصيحة... وحين طلع الفجر كن جميعاً أشلاء...

وعرض الإسبان السلام والعفو فانخدع بالأمر جماعة وتخاذلوا عن الثورة.

واعتقل والد ابن أمية وأخوه وشقيقتاه مع المئات من النساء وحشدوا في سجن غرناطة. وذات ليلة هجم عليهم الحراس وقامت معركة دامت سبع ساعات. قاومت فيها الحجارة والطناجر ضد السيوف. واحتفظ الإسبان بوالد الثائر وأخيه للضغط عليه. وأخيراً طاف المنادون ينادون أن الملك فيليب أمر بإجلاء كل مسلم يتراوح عمره بين عشر وستين سنة إلى هضبة قشتالة في الشمال. بلى نجم عن ذلك التحاق الكثيرين بالثورة فقد شهدت الطرقات إلى الشمال جموعاً بعد جموع تسير على الذل فمنها من يقتل ومنها من ينهب ومنها من يتسكع أو يسقط على الإعياء متورم الأرجل. أما بيوتهم وراءهم فمهجورة مرعبة الساحات والأصداء...

لكن ذلك كله لم يكن الإسبان ليعتبروه نصراً ما لم يسقط ابن أمية في أيديهم وقد عرفوا مكانه وداهموه بستمائة جندي. وتنبه رفاقه للجند برصاصة أطلقها موريسكي منهم فهرب الجميع إلا ابن أمية الذي كان يغط في نوم عميق. ثم أفلت بمعجزة من الجند ووجد أن يغير أسلوبه في النضال فتحول مع جماعته إلى حرب العصابات ومد ذلك في عمر الثورة لكن ابن أمية اختفى فجأة بعد ذلك عن المسرح... رأى رفاقه أنه أخذ يميل إلى التسامح والمهادنة مع الإسبان. وأسر أبيه وأخيه كان يعض شرايينه وقد يذل فيهما ثمانين أسيراً ورفض الإسبان عرضه. وكانت الأخبار تأتيه عن عذابهما المفتت فتتقلص عزيمته وتهوي بروحه المعنوية إلى الحضيض... وبدا أن الثورة تحتاج في ذلك الوقت إلى زعيم آخر يكمل الطريق... وذات صباح من سنة ١٥٧٠ وجد ابن أمية مخنوقاً في فراشه وقد هوجم بيته ونهب!... الجماعة التي اتهمت بالمؤامرة هي نفسها اختارت الأمير بعده: مولاي عبد الله محمد بن عبو أمير الأندلسيين! وكان اسمه الإسباني دييغو لوبيز!

ورغم الضربة القاسية التي أصابت الثورة بغياب ابن أمية المفاجئ إلا أنها تابعت الطريق أكثر نصراً وقوة. كانت مغامرة الجميع لا مغامرة فرد. ونقل

ابن عبو المعركة إلى غوطة غرناطة. واضطر الملك الإسباني إلى جيشين للوقوف في وجه الثوار. وسرت شائعات بأن الموريسكيين في مملكة مرسية وبلنسية سوف يقتدون بجبال البشرات.

عمد الإسبان في هذه المرحلة إلى محو البلدان الثائرة محواً. اتبعوا سياسة الأرض المحروقة. قلعة غاليرا محيت تماماً سنة ١٥٧٠ قتل فيها قرابة ثلاثة آلاف ما بقي من مبانيها هدم. ورشت أرضها بالملح ليساعد في إذابة الثلوج فلا يختبئ فيها أحد. منطقة سردون هرب سبعون ألفاً من أهاليها إلى الجبال، حين التهمتها الحرائق. وزور الإسبان رسائل تعلن العفو لكل موريسكي يسلم سلاحه، أن الحكومة تعفو عنه وتطلق اثنين من اقربائه من الأسر. وحاول الإسبان خداع ابن عبو في مفاوضات استسلام جروه إليها: أرسل فرناندو الحبقي ممثلاً عنه بوثيقة موقعة يعلن فيها شروطه للسلام فعاد إليه بوثيقة أخرى مزورة وألقاها ابن عبو في وجهه. ودفع الحبقي حياته ثمناً لهذه الخيانة... لكن قتله أخفي، لكسب الهدنة، والتقاط الأنفاس... وحين أرسل إليه نائب الملك يسأل عن النتيجة وقف ابن عبو يقول بكبرياء: ما دمت قد انتخبت أميراً فلن أستسلم ولو بقيت وحدي في البشرات. ولدي عند الملمات كهف يكفيني ما فيه من الماء والغذاء ست سنوات... وهي مدة كافية لأتدبر مركباً يقلني إلى المغرب...

ولم تكن القوى متكافئة. ولكنها عزة العقيدة. وفيما كان الجيش الإسباني يكتسح القرى. يأسر. ينهب. يقتل يبيع المسلمين عبيداً. يشعل النيران في مداخل الكهوف. يحرق كالنار العاصفة كل شيء. كادت المؤامرة تنجح ضد ابن عبو! فقد قتل واستبدلوا بأحشائه الملح. ثم حملوه في قفص حديدي ليراه الناس...

وانتهى الثائر المغامر فهل انتهت الثورة؟.. أبداً لقد استمرت في ثوار آخرين.. ولكن الله غالب على أمره...

تشونغ والحاج جهان

أن تجد آلاف الآلاف من القصائد بالعربية في مديح الرسول الأعظم محمد بن عبد الله أمر عادي مألوف. وأن تجد آلافاً من القصائد بالتركية أو الفارسية أو الأوردية فأمر بدوره عادي وليس بغريب أما أن تجد قصيدة بالصينية وأن يكون صاحبها هو إمبراطور الصين فذلك أمر مثير الفضول بعد الفضول...

لقد يكون المسلمون قد اتصلوا بالصين منذ عهد الخليفة الراشد عثمان ابن عفان وقد يكون بعضهم قد تميز هناك وقد حارب بجانب الأباطرة ضد الثورات، بل لقد تكون أول ترجمة جرت للقرآن الكريم إنما كانت إلى اللغة الصينية فالأخبار الصينية هي التي تذكر أن تجار المسلمين في نانكين قدموا خدمات كبيرة للصين في القرن الأول للهجرة وتميزوا بالامتناع عن الخمر ولحم الخنزير وبأن لهم صلواتهم وكتابهم المقدس وأن نائب الإمبراطور قد أخذ نسخة من هذا الكتاب وأودعه في القصر الإمبراطوري ليترجم إلى الصينية. لقد يكون كل ذلك صحيحاً واقعاً فليس فيه من غرابة. لكننا لم نسمع أبداً عن إمبراطور من أباطرة الصين قد أسلم لينظم قصيدة في مدح الرسول الأعظم... مع ذلك فالقصة حقيقية والإمبراطور هو منغ تاي تو أول أباطرة أسرة منغ في أواسط القرن التاسع/الرابع عشر تحمل عنوان (المديح بمائة كلمة) وهي منقوشة في لوح حجري يتصدر الجامع الكبير الذي بني سنة ١٤٦٧ بمرسوم إمبراطوري في مدينة نانكين وبُني تسعون مسجداً آخر من مثله في الولايات على نفقة الإمبراطور! وكان فيها أربعة مساجد كبيرة في العاصمة

نفسها ... وللقصيدة قصة. لم يكن الإمبراطور مسلماً. ولكنه نظم القصيدة تكريماً لقائده المسلم تشانغ يو تشونغ وبطلب منه! ولكن من هو تشانغ يو تشونغ هذا؟

ضابط بسيط من الضباط في الجيش الصيني الواسع رافق ثورة الإمبراطور منغ منذ قيامها في منطقة نهر خوى، يوم خرج الثائر جويو وان تشانغ على أباطرة المغول الضعاف. الفوضى كانت افترست البلاد بعد مرور قرابة القرن على حكمهم والاضطراب يملأ القارة الصينية. ونجحت الثورة وكبر الضابط الصغير بسرعة مع انتصاراتها. وارتقى. وارتقى حتى صار رئيس طليعة الجيش. واللقب من أكبر ألقاب الحرب هناك. ثم طلب إليه الإمبراطور الثائر إنقاذ المارشال هيوتا المحاصر في مدينة ليوتانغ فأنقذه وصار بذلك قائد الجيش الصيني كله واختار لقب ود وانغ أي أمير الحرب سنة ١٣٦٤. وأخيراً رفع إلى رتبة بين جانغ أي المستشار السياسي ... أرفع الرتب!

وأعلن الثائر نفسه إمبراطوراً وكلف تشونغ بالمهمة الأصعب، بالاستيلاء على جميع الولايات شمالي النهر الأصفر، هوانغ هو، في الشمال ... تلك المناطق كانت تعدل نصف الصين. السفر فيها مغامرة كبرى بين الأنهار والغابات وسحيق الوديان ولا نهائية السهول. وذهب تشونغ وانتصر واستولى عليها. كانت جيوش الإمبراطور المغولي الأخير تندحر أمامه كالعصافير الفزعة. حتى احتل تاي يووان عاصمة ولاية شانسي ...

وجاءه الأمر الإمبراطوري الأخير: أن يتعقب توخو تيمور آخر أباطرة المغول في الصين. الحصن الذي كان يتحصن به في كاي بينغ كان من أمنع الحصون. وقد قلص المغولي خطوط مواصلاته وكثف الجمع العسكري حوله ونصب الأرصاد. كان يود لو يترك له هذا الركن من المملكة السماوية العريضة. لكن تشونغ طوقه واستطاع على الأشلاء وزحف الخيل والجماجم أن يستولي على الحصن. وأسر في هذه المعركة عشرة آلاف جندي. وانتهى توخو

تيمور سنة ١٣٦٩ ... لكن تشونغ أيضاً انتهى معه . ضغط المناطق الجبلية العالية دمره . وقبل أن يعود إلى إمبراطوره توفي ولم يكن يزيد في العمر على أربعين عاماً ... أهدى الإمبراطورية للإمبراطور الجديد وذهب ووضع الإمبراطور بنفسه ترتيبات تشييع الجنازة ، وكانت القصيدة التي كتبها الإمبراطور في مدح الرسول الأعظم هي التكريم الأكبر والوحيد الذي ناله تشونغ ...

بعده بفتره قصيرة برز مسلم آخر في الصين يكمل الأول ويعادله تشونغ كان جندياً أما الثاني جين هو فموظف من الموظفين.

تشونغ بنى مجده في البر ، على الصخور الصلدة أما الثاني جين هو فبناه في البحار السبعة . الأول كان سيد الجبال والوهاد والأنهر أما الثاني فكان سيد الماء ... الأول مد سلطان أسرة منغ على القارة الصينية أما الثاني فحمل سمعتها وعلاقاتها ونفوذها إلى ما وراء البحار ... كان عمل الثاني تكملة طبيعية لعمل الأول ... بينما كانت كتب العرب في الفلك والنجوم والعلوم والطب تترجم الصينية في أكثر من مائة كتاب بين الناس .

جين هو ولد في أسرة موسرة ذات جاه في مقاطعة يونان . من أقصى جنوب الصين . كان جده بيان حاكم الولاية أيام المغول . وسرعان ما تميز الفتى بالعديد من المواهب لكن هواية البحر هي التي استبدت به لقد ورث ذلك عن أبيه وجده . فقد ساح كل من الأب والجد وقد حج الاثنان إلى مكة وعادا وعلى أجفانهما الكثير من رؤى البلاد والناس . دخل جين في سلك الوظائف وأصبح ماندازان . وارتقى حتى صار من كبار الموظفين لشؤون البحار وكان من حوله موظفون أكفياء وكتبة ودواوين وأساطيل . وله أصدقاء يعرفون أحوال البلاد والبحار ويأتيه كثير منهم بأخبار بحار الجنوب ... وكانت الملاحة الصينية قد تطورت التطور الكبير . كثر فيها الملاحون البارعون. وكبرت السفن فصارت

بطول ١٥٠ متراً وعرض ٦٠ . وصارت طبقات كالأبراج بعضها فوق بعض، جواري في البحر كالأعلام .

في سنة ١٤٠٥ ، قبل وصول البرتغاليين إلى بحارنا بحوالي مائة سنة ، أخذ (جين هو) الأمر من الإمبراطور جن تسو أن يقوم برحلة إلى ما وراء البحار المعروفة ليصل إلى بلاد العرب ... يقولون إن الرحلة كانت حملة بحرية ضخمة ٦٢ سفينة ، كالقلاع السابحة . أقلعت من نانكين تحمل ٢٧٤٠٠ جندي وقافلة كبيرة من الملاحين والخدم والعمال ... لم تر البحار من قبل مثل هذا المهرجان البحري الضخم . كانت الصين تتحرك فيه إلى عشرات ألوف الجزر .

اليوميات الإمبراطورية تحتفظ بسجلاتها بأعداد الممالك التي زارتها الحملة والقصور الإمبراطورية تحتفظ بالهدايا التي لا تحصى قدمها حكام تلك الجزر إلى الإمبراطور . استغرقت الرحلة سنتين وعادت سنة ١٤٠٧

وتكررت الرحلات ثانية وثالثة ورابعة حتى صارت سبعاً السندباد الصيني نافس السندباد الذي نعرف . في الرحلة الثانية اخترق جين هو مضيق سنغافورة فوصل سواحل الهند حتى جزيرة سرنديب . في الثالثة أدخل الصين ، وتجارة الصين وأسطول الصين إلى المحيط الهندي . حتى جزيرة هرمز في الخليج وحتى شرقي أفريقيا ... رأى الناس لأول مرة ، مراكب ضخمة كالهضاب المتحركة تضرب صفحة الماء بالمجاذيف ثم تقله بأشرعتها المربعة . عائدة إلى المشرق البعيد . صارت حديث الناس ولهفة البحارة . تحركت التجارة مع الصين . نزلت الأواني الأنيقة من الخزف الصيني ومصنوعات البرونز حتى في شرق أفريقيا ...

كانت الرحلة الواحدة تستغرق بين السنتين والثلاث سنوات . في الرحلة السابعة زار (جين هو) عدن وأبحر فزار مكة يؤدي فريضة الحج . حمل منذ ذلك الوقت اسم حاج جهان . أما لقبه لدى أهل الصين فصار سان باو

تاي. جون هو: أي الحصن الكبير جون هو. صار أكبر بحار ظهر في الصين...

وفجأة حوالي سنة ١٤٥٠ أصدر الإمبراطور الصيني قراراً بمنع خروج أي مركب خارج بحر الصين. وقصرت الأطوال التي امتد إليها الأسطول. خنقت الرحلات وطموحات التجار. انكفأت الصين إلى الانغلاق وتسأل عن الحاج جهان... فلا تجد له أثراً؟..

اعتزل في بيته حتى الموت! وجاءه الموت قريباً لأنه كالسندباء منذ حرم البحار السبعة حرم الهواء...

ويليام ويليس

«أريد وأنا في كامل قوتي الجسدية والمعنوية أن أخضع نفسي إلى هذا الامتحان الأعلى. إلى أي عمل لا نهاية له ولا راحة فيه. إلى أغذية عنيفة، إلى رعب العزلة إلى أن أعيش كالجندي في المعركة تحت التهديد الدائم من الموت...».

ليست هذه الكلمات لي ولكنها لرجل يدعى ويليلم ويليس. المكان الوحيد في العالم الذي يتحدثون وسوف يتحدثون عن ويليس على أنه أكثر المغامرين نبلاً وأشدهم جنوناً هو بيت في ضاحية بحرية حول نيويورك عليه لوحة نحاسية كتب عليها (نادي المغامرة)... هناك تجد الخرائط الجغرافية. الأسلحة الشديدة الغرابة. نماذج السفن، الصور. الجوائز التذكارية هي التي تشكل زينة هذا النادي الذي قد يكون أكثر النوادي انغلاقاً في العالم. أعضاؤه مغامرون مميزون، معروفون عالمياً. وكلهم يعتبرون ويليس واحداً منهم لا بل يعتبرونه نموذجاً لا يجارى... لا يمكن الحديث عن المغامرة دون الحديث عنه. إنهم يعرفونه من قصص رحلاته ومما كتبه جورج بلوند عنه في كتابه: المغامرات الكبرى في المحيطات.

في آخر يوليو سنة ١٩٥٣ وفي المحيط الهادي من جزر كالاباغوس وجزر ماركيز كانت جبال من الموج تركض بعضها وراء بعض كالخيل في الميدان، وثم عوامة على الماء تظهر، تارة على الجَلَد وتغيب تارة أخرى. لم تكن أخشاب غريق تعلق بها ولكنها مركب. ومركب له اسم أيضاً: الأخوات السبع على اسم بعض نجوم السماء لدى قدماء البيرو. إنه مصنوع من جذوع شجر

البالسا قد عقدت بالحبال بطول عشرة أمتار وعرض ستة ويحمل صارياً مائلاً عليه شراع عريض وآخر مثلث. وعلى ظهره غرفة صغيرة مغلقة. وليس ثمة عليها من أحياء سوى ببغاء، و قطة.. وصاحب هذا السرير العائم!! ويليام ويليس.

ولم يكن الرجل بالصغير السن. إنه في الستين لكنه انطلق منذ عشرة أيام على المحيط. وها هو دا مرمي على الأرض نصف ميت. يعتصره ألم حاد في أمعائه. وتمر الساعات ويأتي الليل ثم يطلع الفجر قبل أن يستطيع الدخول إلى غرفته. كان قد اختار المخزون من طعامه. وقد اصطاد بالصنارة بعض الدلفين. واضطر حين رأى شقاً في مركبه الغريب أن يبحث طويلاً عن جذوع خاصة من شجر البالسا لإصلاحه جلبت بمنتهى الجهد إلى غواياكيل في ساحل الأكوادور ثم حمل المركب كله إلى البيرو للإبحار.

وهدأ الألم فقام ويليس يعمل على عوامته. كل الأعمال يجب أن يقوم بها اعتباراً من مراقبة الدفة إلى غسيل الثياب. لم يكن ينام. كان يغفو للراحة أما النوم فكان ترفاً حراماً. فكرة هذه الرحلة تفجرت في رأس ويليس في نادي المغامرة في نيويورك حين قال فجأة لزوجته:

ـــ تيدي سأجتاز المحيط وحيداً على ظهر عوامة...

ومع أن زوجته تعرف أنه مغامر غريب. وأن تحقيق أفكار مستحيلة كهذه ليس بعيداً عنه وتعرف إلى هذا وذاك أنه نشأ في هامبورغ. على البحر وأنه إلى هذا كله حين تزوجها كان قد تزوج قبلها البحر، هذه الضرة الأخرى إلا أنها قالت لا تفعل ذلك. هل أنت مجنون؟

ولكن المغامر المجنون فعلها

لم يكن أبواه قد وضعا أقدامهما على مركب أبداً.لكنه وعمره خمس سنوات قد أخذه الهوس بالمراكب الراقصة على المياه في هامبورغ فقفز إلى مركب خال ولعب بآلاته فإذا بالمركب يتحرك وحيداً. وظل تائهاً في المركب

يطوف ويطوف حتى أوقفته الشرطة . بعد عشر سنوات أبحر ويليس على مركب ذي ثلاثة أشرعة نحو أمريكا . لكنه سرعان ما أصيب بالخيبة من أن يبقى بحاراً . في تلك المراكب الشراعية وهي في المغيب النهائي ... وتقلب بعد ذلك في الأعمال عمل صبي مقهى . صياداً في القطب الشمالي ، مصارعاً في المصارعة الحرة ، حطاباً ، بناء . وعاملاً في مصهر للمعادن . وفي كل مرة كان يترك العمل كان يرى ملاحاً على المرفأ ... كان مجنوناً .. بلى كما كتب عنه يلوند ولكنه مجنون بالبحر .

قبل مغادرته بأشهر كان ثورها يردال قد أضحى عالمي الشهرة بمحاولة اختراقه المحيط على المركب (كان ــ تيكي) وعليه ستة رجال وحين تثور العواصف يكونون ستة ضدها . وقد استقل عددهم الناس مع ذلك أما ويليس فهو واحد لكل شيء وضد كل شيء . كان يريد أن يقول : إن امرءاً مع البحر ليس وحيداً أبداً . ولقد تكلم الناس عن (كان ــ تيكي) كثيراً . أما هو فلن يتكلم عنه أحد . المبحرون وحيدين ليسوا بالضروة محبوبين . إنهم ليسوا بمخلوقات اجتماعية بقدر ما هم أسرى الطموح . إنهم خجولون جداً بقدر ما هم متبجحون . يلجؤون إلى مراكبهم لأنهم يريدون أن يسحقوا باحتقارهم مجتمع الناس . يهربون منه لأنه يرهبهم ويريدون أن يتحدوه ... مع كل هذا فإن ويليس كان أنيساً ، اجتماعياً ، سعيداً بحياته ولكن المغامرة تركض في شرايينه كلما ذكرت كلمة البحر . وكانت زوجته تعرف أن لزوجها زوجة أخرى ، هي البحر وسوف تختطفه .

كان ويليس يرسل الإشارات اللاسلكية لزوجته ولم يكن يعلم أنها لا تتلقاها وفي اليوم الستين لمغامرته . وقعت الكارثة . تآكلت خزانات الماء بالملوحة وتسرب معظم الماء لم يبق لديه سوى حوالي ستة وثلاثين لتراً . ولم يأبه كان منذ أربع سنوات ، تعود شرب بعض من ماء البحر ليحرك أمعاءه . يستطيع شرب شيء منه وادخار ماء الشرب لمسافة أطول . طعامه لم يكن

يطلب الماء. كان تزود (بالمالشيكا) هذا الطعام الذي يعرفه الهنود في جبال الأند ولا يحتاج طهياً ولا طناجر ولا نار. إنه دقيق. يعجن بقليل من الماء ويبتلع فإذا أنت بقوة الحصان.

منذ اليوم السبعين للرحلة رافقته واحدة من سمك القرش. ارتعب أول الأمر. حسبها نهاية الرحلة. وأخذ يفكر كيف يتخلص منها ولكنها كانت مستمرة الإبحار وراءه. تعلو وتطفو وتلعب ولكنها تستمر في الإبحار وزلقت قدمه ذات يوم فإذا به في الماء وقضى الساعات يلاحق مركبه والقرش يراقبه بعيون بيضاء. في ٩ سبتمبر سقط ويليام عن الصاري. كانت سقطة ثلاثة أمتار ولكنه وقع على رأسه أوغمي عليه وأفاق ليغمى عليه مرة أخرى ... وفجأة بعد ذلك وجد نفسه أعمى ...

أعمى وحيداً، وعلى عوامة في المحيط الأوسع ... كان الأطباء من قبل قد أنذروه الماء المالح والإشعاع الشديد يؤذيانه. وانضم إلى ذلك قلة النوم. وحبس نفسه في الظلام المطلق عدة أيام. كان يعلم أن المحيط خال أمامه فلم ييأس. أهو التفاؤل أم الجنون لست تدري ولكنه أكمل الطريق ... وشيئاً فشيئاً عاد يبصر ... في ١١ أكتوبر رأى في الأفق سواد أرخبيل ساموس. وأبرق يطلب الإسعاف ...

بعد أيام كان في الطائرة إلى نيويورك والمطار هناك يزدحم بالصحفيين والمصورين والفضوليين. لكن هل انتهت المغامرة؟ أبداً. صحيح أنه صار مشهوراً ولكن المغامرة هي التي كانت تأكله لا الشهرة.

في سنة ١٩٦٣ وكان في السبعين اجتاز المحيط الهادي مرة أخرى على مركب سماه: لا حدود للعمر! وحين سألوا زوجته قالت: إنها الضرة الأخرى تدعوه في الثالثة والسبعين لرحلة ثالثة ولكن في المحيط الأطلسي إلى أوروبا على مركب لا يزيد على أربعة أمتار وقد التقط من المحيط مريضاً جداً وأعيد إلى نيويورك. بعد سنة عاد إلى البحر على قشرة الجوز هذه التي سماها: المركب

الصغير ... والتقطه مركب صيد ... قد فقد الوعي وهو يقول اتركوني أتابع الرحلة !!

في أول حزيران سنة ١٩٦٨ كان يودع الناس للرحلة الخامسة على مرفأ نيويورك وهو في الخامسة والسبعين ! .. وفي أواسط سبتمبر وجد مركب روسي مركباً صغيراً طافياً قرب السواحل الإيرلندية. محطم الصاري والأشرعة. ولم يجدوا عليه أحداً. دفتر السفينة يذكر شيئاً عن عاصفة تقترب .. قبل شهرين !!! وعلى السفينة اسم المركب الصغير حين نقل الخبر إلى الزوجة قالت : كنت أعلم أن الزوجة الأولى سوف تستأثر به !

لقد بقي معها !

يعقوب بك

الزمن : أواسط القرن الماضي

المكان : في قلب آسيا . في سرتها . في أبعد المناطق عن جميع البحار .

هناك تقع منطقة سنكيانغ الشاسعة . الاسم صيني ويعني الولاية الجديدة فقد استولت الصين على هذه البقعة التي تزيد على ٨٠٠ ألف كم٢ في أواسط القرن الثامن عشر . لكن السكان كانوا في معظمهم من الترك . وتقسم جبال تيان شان (أو جبل السماء) هذه البقاع الشاسعة عرضانياً إلى قسمين : شمالي هو زونغاريا وجنوبي يدعوه الصينيون أرض المسلمين (هوى كيانغ) أو الكشغرية فمدينته الكبرى كشغر . نائب الإمبراطور المقيم في بلدة خولجا قرب الحدود الروسية هو الرأس الإداري لهذه المنطقة الجنوبية ولكن الفوضى كانت تسيل في الدروب . الإهمال معشش مفرخ في كل الزوايا . الرشوة هي القانون . والذمم لمن يشتري وأما جامعو الضرائب فكانوا عصابات تحط كأرجال الجراد بكل مكان فلا تبقي ولا تذر ..

وقد ثار المسلمون مرة ومرة ومرة . عبثاً دفعوا الثمن من رؤوسهم ومن الدماء ثمناً للخلاص . تدحرج على النطع كل رأس ارتفع . الناس حوالي ١٨٥٠ كانوا يذكرون بالأسى ثورات الخوجة الكبير والخوجة الصغير سنة ١٧٥٥ . ولانتشو سنة ١٧٨١ وشيفانبو ١٧٨٣ ويهزون الرؤوس أسفاً ...

ويذكرون ثورة المغامر جهانكير القريبة العهد سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٢٦ ويبكون لمصيره . لقد انتصر أول الأمر . أخذ أربعة مدن . لكن جيوش نائب الإمبراطور تكاثرت من كل الجهات . أحكمت الطوق على منطقة

الثورة... كان قد اجتمع لدى جهانكير ما يزيد على مائة ألف جندي. ولكنهم كانوا في معظمهم يجهلون الاستراتيجيات العسكرية. امتدوا عشرين ميلاً على شواطئ نهر الخون وحفروا الخنادق وأقاموا التحصينات. ولكن القيادة العسكرية الصينية استطاعت إشغالهم بمناوشات على الجناحين لتدمر قلب الجيش بالمدفعية... ومع ذلك فقد قضت عدة أشهر قبل أن تستطيع إعادة الكشغرية إلى الهدوء... وأما جهانكير التي وضعت السلطات عشرة آلاف مثقال من الذهب ثمناً لرأسه ولم تستطع إغراء أحد به، استطاعت القبض عليه بالغدر. طوقوه في ممر جبلي عصي وساقوه في الحديد إلى بكين... كان الإمبراطور توكوانغ يرغب في رؤيته ليسمع منه أسباب الثورة الدموية ولكن عصابات الموظفين خشيت انفضاح أمرها. فأغلقت فمه إلى الأبد قبل أن يصل قاعة العرش. سممته!

وبقيت الكشغرية على حالها. يتقاسم الحكم فيها بك من مدينة هامي، وآخر في كشغر اسمه صادق بك وثالث في أرومجي بلقب السلطان المسلم (هوي هوي وانغ) وهو أقوى الجميع.

وعادت الكشغرية تضطرب. تهتز. تبوء بالغضب الأخرس حتى إذا قامت ثورة البوكسرز في الصين انتهزت الفرصة وثارت... وظهر فيها من الزعماء شنوو، وماهوا لونغ ومابتيوان. ويباي نيان فو. وآخرون كثيرون. وهزمت الجيوش الإمبراطورية في أكثر من جبهة وأكثر من مكان... لكنها عادت فانتصرت عليهم واحداً بعد الآخر. وفر بعضهم وقتل آخرون واستسلم ماهوا لونغ لينقذ المسلمين الآخرين مؤكداً قبل أن يعدم أنهم بريئون!...

في ظروف الثورة هذه حوالي سنة ١٨٦٥ ظهر يعقوب بك... إنه تركي لا صيني. ومن إمارة خوقند المجاورة لمنطقة سنيكيانغ الصينية ولكنها المغامرة هي التي جرته... والظروف هي التي دفعته إلى الصف الأول وإلى مركز الأحداث. كان إذ ذاك في الأربعين من العمر. وينسب نفسه من جهة الأم إلى

آل تيمور . كما تزوج من أخت أمير طشقند التابعة لإمارة خوقند . قبل أن يسيطر عليها الغزو الروسي الوشيك . فهو إذن من الطبقة الأرستقراطية وقد أتيح له أن يخوض وهو لما يزل في مطالع الشباب في سياسة البلد وأن يتصل بمتخذي القرار فيها ... كما أتيحت له من جهة أخرى فرصة التربية العسكرية والتدرب على القتال .

وقد خاض الحرب في معركة أقمسجد ضد الروس سنة ١٨٥٣ فأصبح بهذا وذاك الساعد الأيمن لعالم قولي حاكم خوقند ...

حتى الآن لم تكن المغامرة قد بدأت . ولكن صادق بك أمير الكشغرية كتب إلى سيد خوقند يطلب مساعدته ، والرجل غارق في تهيئة البلاد لدفع الروس عنها . فاعتذر ورشح يعقوب بك الذي لم يكن يرغب في الذهاب ! لكن الأمور انقلبت في أيام معدودة . قتل عالم قولي في المعركة مع الروس الذين دخلوا خوقند ونصبوا خدايار خان حاكماً جديداً فرأى يعقوب بك أنه أمام الحل الوحيد ... الذهاب إلى كشغر ! وغادر طشقند سنة ١٨٦٤ في مجموعة تضم ٦٢ من المغامرين على رأسهم بزرك خان ابن أخ ولي خان الحاكم السابق لكشغر ... وندم صادق بك على هذه الدعوة التي جاءته بمنافس على الإمارة وحاول صرفه لكن بزرك خان أعلن نفسه أميراً على كشغر وأصدر أمراً إلى يعقوب بك باتخاذ ما يراه لموجهة الموقف ...

كان هذا يعني تجنيد الأنصار والحرب ونجح يعقوب . وطرد صادق بك من المسرح السياسي بادئاً بذلك مغامرته التي استمرت ثلاث عشرة سنة ...

يقولون إن يعقوب بك كان وراء قرار الإمارة الذي اتخذه بزرك . قد يكون ذلك . فما إن انتصر على الحاميات الصينية وسيطر خلال أقل من سنة واحدة على الكشغرية حتى أبعد سيده بزرك . أرسله إلى الحج فجاور هناك . وتقلد يعقوب بك بلقب (أتاليك غازي) الذي منحه إياه أمير بخارى ليكونا معاً جبهة ضد الأطماع الروسية في أرض الترك المسلمين ... وأخذ في التوسع

بإمارته بعد ذلك . أخضع منطقة (ختن) بعد اغتيال أميرها حبيب الله . وأبرم اتفاقية سلام مع أمير أرومجي سلطان تومين حتى إذا استطاع الهجوم عليه حاربه وهزمه وأخذ بلاده مدينة مدينة ... قبل نهاية سنة ١٨٦٧ كانت دولة كبيرة قد نشأت في سينكيانغ الصينية وفي المنطقة الكشغرية منها وصار يعقوب بك زعيم المسلمين جميعاً في آسيا الوسطى ...

كان يعقوب بك يعلم أنه أقحم نفسه في المزلق الخطر . أنشأ دولة بين ثلاث قوى ضخمة كل منها طامع في المنطقة : الصينيون الذين يرونها لهم والروس الذين يضعونها على مخططات توسعهم والبريطانيون الذين يتوغلون في القارة من الهند والجنوب وملء إهابهم الأطماع ... كان بين ثلاثة تروس كل منها مسنناته لا أضخم ولا أقسى . ولعب يعقوب بك بالسياسة والحرب ، لعبة الحجر والكرة ، ثلاث عشرة سنة قبل أن يسقط بيد الروس .

كانت الصين مشغولة عنه بالاحتلال البريطاني الفرنسي وعقابيله فتفرغ للروس الذين أخذوا يتسللون بنفوذهم إلى المنطقة . كان يكرههم . ولكنهم أرغموا الصين على تنازلات كثيرة منها ما يتناول بلاده . وحاول الجنرال الروسي في تركستان مهادنة يعقوب بك تارة . وتهديده أخرى واحتلال عدد من القلاع والممرات ثالثة . وبعث بالتجار الروس إلى كشغر رابعة ... وفشلت كل المحاولات . وكانت روسيا تهيىء حملة ضخمة للهجوم على الكشغرية سنة ١٨٧٣ لكن أمرين أوقفا هذا الهجوم : الثورة على روسيا في خوقند والتدخل البريطاني بجانب يعقوب بك . لقد أرادت بريطانيا اتخاذه عميلاً لها في قلب آسيا . وقبل يعقوب هذا الغزل لأنه كان يريد استخدامه ضد الصين والروس ...

على أن الصين لم تسكت ... الإمبراطور نفسه كان يريد التسامح واصطناع يعقوب أما الطبقة العسكرية المهزومة أمام الأجانب فكانت تريد نصراً داخلياً ينقذ سمعتها . وظلت تلح حتى نجحت . وعين الجنرال تسو تسونغ تانغ

سنة ١٨٧٥ لاسترداد المنطقة ... ولم تكن القوى متكافئة بين يعقوب والجيوش الإمبراطورية الجرارة . وفرض الضرائب على الناس واستجد بالبريطانيين في الهند وحشد كل طاقاته ... لكن الآلة الإمبراطورية الصينية كانت في ٣٣ فرقة من ورائها أمثالها . وانهار دفاع يعقوب مدينة بعد أخرى .

وفي أبريل وجد أنه خسر كل شيء فتناول السم !

وقتل ابنه خير الله في كمين وهو يرافق نعش أبيه . وذهبت أسرته كلها في المذبحة التي قامت بعد ذلك وختمت التاريخ الإسلامي في سكيانغ ... الكشغرية !

الملحمة الدموية

بانشو فيلا !

مع هذا الاسم ندخل في دوامة المكسيك . في دوامة الدم الذي ينسكب . فلا هو ينقطع ، ولا هو يرهب أحداً . التقاليد الدموية القديمة التي كان كهنة الأزتيك فيها يصعدون عالياً من الدرجات ليجدوا الشاب الذي اختير ليكون أضحية للآلهة . فيطعنوه الطعنة النجلاء في القلب . ثم يستخرجوا هذا القلب من الصدر . ويقدمونه نابضاً نازفاً للشمس ، تلك التقاليد يبدو أنها ما تزال تعشش عميقاً في صدور أهل المكسيك . . .

بانشو فيلا ، في مغامراته الرهيبة المهووسة ، أحيا تلك التقاليد . ولكن من هو بانشو فيلا ؟ لقب شعبي ولكنهم حتى في المكسيك نسوا اسمه الأصلي (دوروتيو آرانغو) . من كمال الصورة الأسطورية للأبطال الشعبيين أن يكون لهم لقب . وطفوله بانشو البائسة تكمل إطار شعبيته . فالبؤس في المكسيك يزحف في الدروب . وينام في الوحول على الأرصفة . فكيف وقد ولد بانشو سنة ١٨٧٧ خلاسياً في مزرعة لأحد الأغنياء (الهامسندادو) أصحاب المزارع الإسبان ، ومن أبوين يعملان فيها كعبيد الأرض ؟ كان عمره ١٩ سنة حين هرب إلى الجبال في شمال المكسيك ملتحقاً بعصابة من الخارجين على القانون ! . . ولم تمض بضع سنوات حتى كان بجرأته وذكائه رئيس الجماعة ثم قائداً لجيش خاص دخل في حرب مفتوحة مع أصحاب المزارع الأغنياء . كان حقده بوصفه (بيونز) فلاحاً حقيراً هو الذي انفجر في وجه مصاصي الدماء . . .

هؤلاء! حين لجأوا إلى الحكام لحمايتهم، دخل بانشو في حرب مع هؤلاء أيضاً ومع المتمولين وأصحاب صناعة البترول الأمريكيين!!

واندلعت الثورة سنة ١٩١٠ في المكسيك فما أسرع ما كان بانشو على رأس أقوى الجماعات الثائرة في البلاد، طارداً، مع الجيش الثوري القوى الفيدرالية الحكومية من مدينة إلى مدينة. منتصراً في النهاية، عند مدينة خوارس، نصراً ساحقاً حاسماً على قوى الدكتاتور (بورفيريو دياز) الذي كان يحكم المكسيك منذ ثلاثين سنة. واضطره للهرب إلى أوروبا! ولكن الرئيس الجديد فرانسيسكو أعلن نفسه رئيساً للجمهورية...

كانت شهرة بانشو الثورية قد جعلت منه نوعاً من الأسطورة لا يعدلها إلا أسطورة زميل آخر له من جنوب البلاد اسمه زاباتا. والناس ينتظرون منهما المعجزات. ولم يخيب بانشو الآمال. جمع جيشاً ثورياً ساقه في أسوأ الأحوال، واستولى على خوارس. وذبح حاميتها حتى آخر جندي فيها. ثم حاميات المدن الأخرى، مذبحة وراء أخرى ثم مشى إلى مكسيكو التي فتحت له أبوابها في نصر ساحق كلف سبعة آلاف قتيل! وأبيدت قوى الجنرال هويرتا فيما كان الثائر الآخر زاباتا يسحقها في الجنوب ويصبح سيد منطقته مع جنوده من الهنود. ودخل زاباتا أواخر سنة ١٩١٤ مكسيكو وسط عاصفة من التصفيق وجنون الفرح. الشعب كله زحف ليرى البطل المحرر. أما بانشو فذهب يبكي على قبر موديرو صديقه. ثم استقبل زميله الجنوبي زاباتا. وتصور الزعيمان معاً في الصالة الرئيسية لرئاسة الجمهورية! وإن لم يكن جو الكريستال والسجاد الفاخر الأحمر، وسلالم المرمر الأبيض بالذي يتلاءم مع أشكال الفلاحين الخشنة التي كانوا عليها...

لكن بانشو فيلا بلغ في تلك اللحظات قمة مجده!

أعقب ذلك خمس سنوات من الفوضى والنهب والقتل ملأت البلاد خراباً وعصابات دمار. كل «جنرال» في الجيش صار حاكماً في بلده.

وصك عملته الخاصة. نسفت الخطوط الحديدية. ثم أعيدت. ثم نسفت مرايت. القواد المنتصرون كانوا يعدمون أسراهم حتى تجف جثثهم في الشمس في طول البلاد وعرضها... الجنرال ألفارو أو بريغون، أحد الزاحفين لرئاسة الجمهورية، كان يسعى لإقرار النظام عبثاً. أما الذي ما اهتز لذلك كله فهو الجنرال كارانزا. كانت الولايات المتحدة تدفع له كل ما يحتاج من مال وسلاح ليسهر على بقاء ينابيع البترول في خليج المكسيك، في أمان. وقد أعلن نفسه رئيساً مؤقتاً للبلاد لكن لم يصدقه أحد. يعرفون أنه مجرد عميل أمريكي يعمل لحساب الشركات في الولايات المتحدة!

في سنة ١٩١٥ قرر بانشو بدوره إعادة النظام. ولكن كيف يعيده وتكوينه الشخصي نفسه وتكوين قواه قائمان على الفوضى؟ وكان نصف أمي. ولكنه مع ذلك شاء أن يكون بعرض الآمال التي يعلقها عليه الناس. أنشأ جيشاً من الفرسان يهاجم فيه قوى (أوبريغون) في بلدة سيلايا. وكانت مطوقة بسلسلة من الخنادق المتعرجة والأسلاك الشائكة. واحتقر بانشو هذه الطريقة الحربية وأمر فرسانه بالهجوم فتساقطوا صرعى كأكوام العصافير. الخيل تنقلب بالرصاص وتضرب بحوافرها الفضاء والفرسان تحتها ومن حولها يسحقون. والنقع يعمي الأبصار. وخسر بانشو المعركة... وخسر بعدها معركة من مثلها في سانتاروزا. لكن بانشو لم يستطع تقبل الهزيمة بسهولة وأمجاده وراءه تصرخ فعاد ينشئ جيشاً من ١٥ ألف فارس مر بهم عبر الجبال من ممر طوله ٨ كيلو مترات بعرض سبعة أمتار في قلب الصخور الجبلية (سييرا مادره). في نهاية الدرب، كان ثم بلد صغير اسمه (آغوا برييتا) يحميه بعض أنصار أوبريغون، وهو صاحب حانة ماعرف أبداً مدرسة عسكرية ولكنه تكشف عن استراتيجي ممتاز...

هجم بانشو بقواته في خط من الفرسان طويل. نسفت الألغام أقسامه الأولى. وتمزقت أقسامه التالية على الأسلاك الشائكة فيما كانت الرشاشات

تحصد صفوف المهاجمين . ولكن جماعة بانشو كانوا من الكثرة بحيث لم يبالوا بالضحايا . كانوا يقفزون فوق الجثث والخيل الصرعى في حملة مجنونة بلغوا بها الساحة الكبرى في البلد . لم يجدوا جندياً فيها . لكن النيران كانت تنصب عليهم من جميع الأبواب والنوافذ والمنعطفات والسطوح ، ومن كل سلاح . تضرجت الخيل بدمائها بالمئات . وهي تصهل وتجن وتدوس الموتى والجرحى . الذين لم يصابوا صاروا يتراكضون في فوضى هاربين ... ومع ذلك نجح بانشو في تشكيل فرقة حملها بجنون على الهجوم . فلقيت المصير نفسه . وحمل ثالثة مثلها ففشلت ... وامتلأت أزقة (آغوا بريينا) بالجثث أكواماً . والتصقت الأشلاء بالجدران والشجر ! .. كان جيش بانشو قد استؤصل تماماً ! ..

هل أهمته هذه المذبحة المجنونة بعد هزيمة سيلايا؟ أبداً . إنه عرف منها فقط أن الولايات المتحدة وراء هذه القوى العدوة . وبالمئات المعدودة التي بقيت في جيشه الكثيف انسحب إلى بلدة حدودية اسمها بالوماس نصفها أمريكي يسمى كولومبوس . كان فيها حامية من فرسان الجيش الأمريكي . بعد منتصف ليلة ٩ مارس سنة ١٩٤٦ دخل بانشو على رأس جماعته . والليل سكون كأنما جمد الظلام . وفوجئت الحامية الأمريكية أي مفاجأة . بنادقها في صناديقها . حتى ألبستها معلقة على المشاجب . واندلع القتال مع الصراخ واختلط الحابل بالنابل . كأنما كان الأمر صراعاً بين مجموعتين في الطرقات لا بين جيشين نظاميين ! وأرادت الولايات المتحدة الانتقام لقتلاها وتأديب هذا الإرهابي فأرسلت حملة يقودها الجنرال برشينغ مع ٢٠ ألف جندي مهمتها القبض على بانشو فيلا ومحاكمته ... ولكن هذا كان سهلاً في القول صعباً في الواقع . فقد عاد الرجل إلى الجبال التي قضى فيها شبابه . ولم يكن قد نسي بعد الاحتيال لمعاشه مع أصحابه . وكان يقتل البقر ليطعمهم . ويجر وراء العربات أغصان الشجر لمحو أثر السنابك على الأرض . ولا ينقطع في الوقت نفسه عن حرب العصابات مع الحملة الأمريكية ! وفشلت الحملة تماماً . كان فشلها

الهزيمة الوحيدة للولايات المتحدة حتى وقعت حرب الفييتنام. وعاد برشينغ ليرسل إلى الجبهة الأوروبية في الحرب. في حين كان بانشو في خريف سنة ١٩١٨ يشكل بمعونة بعض أصدقائه جيشاً من خمسة آلاف رجل، بكامل أسلحتهم وعلى استعداد للسير معه إلى النصر أو الموت. وقرر غزو المكسيك!!

بدأ من بلدة بارال، حيث كانت الجماهير تحبه الحب الشديد (في نيسان سنة ١٩١٩) فاستقبل فيها بحرارة تشبه الجنون. جماهير الفقراء. والهنود والخلاسيين كانت تصفق وهي تبكي. وتقدم إليه وفد من صغار الفلاحين يشكو رئيس البلدية الذي كان يعدمهم لأقل هفوة. وبعد قليل كان هذا الرئيس مع ولديه معلقين على الأعواد في الساحة العامة.

واحتل بانشو بالقوة شيهوهوا التي انسحب منها الجيش الاتحادي (الحكومي) ولكنه اضطر لتركها. فلم يكن لدى جيشه الكثير شيء من المؤن! وظهر أمام بلدة خواريس وأرسل رسالة إلى حاكمها كارانزا يعده بالعفو إن أخلى المدينة. فلما رفض العرض احتلها بالقوة. وذبحت حاميتها عن آخرها. وترك بانشو إثر ذلك لجنوده أن يحتفلوا بالنصر. غرقوا في الكحول والكاشاسا والنساء. كان الجيش كله في الصباح في خمار. حين كر كارانزا بحملة من فرسانه على البلد في حين كان الأمريكيون يهاجمون الجسر الدولي على نهر ريو غرانده لمعونته. وانسحب بانشو، وهو يقاتل متراجعاً إلى الجبال...

أدرك أريغون: حاكم المكسيك أن الجنرال كارانزا لا هم له إلا رعاية المصالح البترولية للولايات المتحدة فطردوه من مجلسهم الحربي وانتهى قتيلاً في كوخ أحد الفلاحين فيما كان يحاول الهرب إلى الولايات المتحدة. أما زاباتا الزعيم الثوري الجنوبي فقد استدرجوه إلى كمين ثقب جسده بالرصاص... وأما بانشو فقرر أوريغون أن يبعث إليه بالكاتب المكسيكي الياس توريز، صديقه منذ زمن طويل يعرض عليه في كهفه الجبلي: الأمان، ومزرعة واسعة

لتربية البقر، وراتباً تقاعدياً يعادل الراتب الرسمي لأي جنرال في الجيش المكسيكي!

وقبل بانشو العرض. أخذ مزرعة تزيد على عشرة آلاف هكتار، بجانب مدينة بارال مدينته المفضلة وضع هناك أسرته وأولاده... المغامر تعب من القتال. أرهقته الأيام. هكذا كان يقول المحبون. أما الآخرون فيقولون إنه باع كل تاريخه بمزرعة وراتب! ولكنه حين أراد أن يؤمن على حياته كأي بورجوازي عاقل رفضته شركات التأمين كلها... ولو كان «جنرالاً رسمياً»!

وذات يوم من أيام يونيو (حزيران سنة ١٩٢٣) خرج بحرسه المسلح من المصرف ومعه ٢٠ ألف بيزو من الذهب لعماله وفلاحيه. وعطف على مشرب سقى به الجميع على حسابه مرتين. وخرج إلى خارج المدينة. وعند كوخ عتيق مهدم لا زجاج لنوافذه كان ثم فلاح عجوز جالس على الطريق وبجانبه صحن فيه بعض الكوسى. وحين مر به بانشو في سيارته أخرج الرجل منديلاً أحمر مسح به وجهه وهز المنديل في الهواء صائحاً: عاش بانشو فيلا!

في تلك اللحظة كانت ستة بنادق تظهر من نوافذ الكوخ ويدوي رصاصها في الجو.. وسقط بانشو على المقود. في حين اصدمت السيارة بشجرة... جميع من كانوا معه قتلوا، وكان نصيبه ١٢ رصاصة!

بهذا الشكل انتهت الأسطورة. من القتلة؟ لم يعرفهم أحد. ظلوا مجهولين. ولكنهم قالوا إن هذا المغامر لم يعرف الراحة حتى بعد موته! فقد نبش قبره في فبراير (شباط) سنة ١٩٢٦، من قبل مجهول قطع رأسه وأخذه معه! ويظنون أن هذا المجهول باع الرأس لبعض الأمريكيين. وأنه موجود لدى بعض من يجمعون الذكريات. في تكساس!

من يدري؟ قضى بانشو حياته يشرب الدماء ويسقيها كأساً دهاقاً. وحين قتل في النهاية، لم يستطع أحد أن يعرف أين مصير جمجمته؟.

خيـر الـديـن بـربـروسـا

هل تعلم أن الجزائر كانت سيدة البحر المتوسط مدة تزيد على ربع قرن؟ فيما بين سنتي ١٥٢١ و١٥٤٥. القصة تبدأ مع خير الدين بربروس: كان أخوه يحكم الجزائر. وقتل في معركة مع الإسبان فأعلنه الجند بالإجماع رئيساً لهم وقائداً. لكنه تسلم القيادة في وقت من أحرج الأوقات. تحركات الإسبان حوله كانت تهدده. الثورة في قبائل البربر كانت تجمجم ضد هذا التركي الغريب وقد فقد إخوته وخيرة الجند في معركته الأخيرة مع الإسبان الذين كانوا يحتلون نقاطاً من السواحل. لكنه لم يكن كأخيه فاتحاً مجاهداً فحسب ولكنه كان إلى ذلك دبلوماسياً. قرر وهو يحصن مدينة الجزائر ويمونها أن يربط نفسه بالعلم العثماني. إنها أقوى الدول الإسلامية وهكذا أرسل مبعوثاً إلى السلطان سليم الأول في استامبول يستنجد. نقل القضية بذلك إلى النطاق الدولي. وكانت الجزائر تشكل امتداداً هاماً لإمبراطورية السلطان الذي فتح منذ قليل بلاد الشام ومصر. ومن مصلحته أن يصبح خير الدين تابعاً له!

وفي سنة ١٥١٩، بعد سنتين فقط من الفتح الشامي المصري أعطى (حاكم عام) للجزائر. وأضحى خير الدين بذلك ممثلاً لدولة عظمى في ذلك الوقت. تحسب أوروبا حسابها! وأرسل إليه السلطان العثماني مع اللقب ألفي انكشاري من جنده وأربعة آلاف محارب. تحفظ له الأرض التي تملكها عروج أخوه.

وعرف شارلكان ملك إسبانيا بالخبر فأرسل لقائده هناك خمسة آلاف جندي وأربعين سفينة لتطهير الجزائر! ولكن الحملة انتهت بكارثة. نزلت في

شرق الجزائر بسهولة ومشت نحوها . ولكن قبل وصولها إليها فوجئت بهطول أمطار هائلة كأفواه القرب جعلت الأرض تحتها طيناً . في حين مشى الانكشارية على الساحل ليهاجموا مراكز تموين الحملة . وحين أراد الإسبان العودة لحماية معسكرهم فوجئوا بظهور المحاربين المسلمين على الطريق . الذين مزقوهم مزقاً .. وهبت ريح صرصر عاتية أغرقت لهم ٢٦ سفينة . كانت الحملة كارثة ! لكن تحركات القبائل جعلت خير الدين يخرج من الجزائر لإخمادها فلم يستطع العودة إليها فبعث يطلب جنوده منها ويتخذ من مدينته جيجلى مقراً وقيادة ..

فيما بين سنتي ١٥٢٠ ـــ ١٥٢٥ قوي مركز خير الدين . غزواته للمرافئ والسفن النصرانية أعطته المال الكافي . قواده دراغوت ، صالح ريس ، عابدين ريس . أصلحوا السفن الثمان عشرة من أسطوله والتي كانت ما بين أبريل ونوفمبر من كل سنة تغير على المرافئ الإيطالية . وعلى جزر الباليار والشواطئ الإسبانية . وتخترق مضيق جبل طارق . لتضرب السفن العائدة من أمريكا بالثروات الخيالية . أما في الشتاء فكان خير الدين يصلح أسطوله ويدفع الأتاوة السنوية للسلطان ، ويدير شؤون أراضيه ! ولمع نجمه أكثر من أخيه عروج . صار بطلاً ..

وأنشأ جسراً ربط بين أربعة جزر وسوراً للجزائر طوله كيلو متران كل ذلك بواسطة الأسرى . وصب المدافع ونصبها على الميناء . وأضحى تحت إمرته أسطول من أربعين سفينة تحرث البحر الأبيض المتوسط .

لكن خطراً جديداً ظهر !! طرد العثمانيون بقايا الصليبيين من جزيرة رودوس فلجأوا إلى مالطة . جروا معهم أسطولهم وكان وجوده يهدد خير الدين التهديد الخطير . وأتاه من السلطان العثماني سليمان الثاني الكبير دعوة عاجلة . فترك الجزائر في عهدة الآغا حسن وتوجه إلى استامبول حيث عهد إليه السلطان بتنظيم أسطوله ! وهذا يعني تعليم العثمانيين بناء السفن وتدريبهم على قيادتها . وأنهى الأمر في سنة واحدة . أنشأ ستين سفينة مسلحة عليها طواقمها

المدربة . في ربيع سنة ١٥٣٤ كان الأسطول العثماني قوياً . يشتمل أربعاً وثمانين عمارةً بحرية . أثبتت جدارتها حين احتلت تونس تلك السنة بسهولة باسم الباب العالي !! حاولت إسبانيا مرة ثالثة أن توقف هذا الزحف في تونس . أرسل شارلكان حملة ضخمة من ٦٠٠ سفينة عليها ٣٠ ألف مقاتل ... وشارك في الحملة فرسان مالطة بأمر البابا .. القتال كان طويلاً وملحمياً ... اضطر خير الدين لأن يقاتل وهو يتراجع إلى بلدة بونة . واسترجع السلطان حسن تونس تاركاً للإسبان نهب المدينة . وأعطاهم جميع الأسرى النصارى مع مراقبة بعض الموانئ .

صمم خير الدين على الانتقام بسرعة غريبة . هاجم على الفور جزر الباليار ـــ ضرب سفينة إسبانية . دخل بلدة ماهون ونهبها جميعاً . وأسر سفينة برتغالية وعاد ومعه ستة آلاف أسير ! ثم ذهب إلى استامبول ليعطيه السلطان لقب قبودان باشا أي أميرال الأسطول العثماني كله ! أمير البحار ثاني المناصب بعد السلطان ! منذ ذلك الحين صارت له مهمة رسمية هي أن يقمع تحركات أمير البحر الإسباني المسمى دوريس دوريا . هاجم السواحل الإيطالية على رأس أسطول قوي . أخذ آلاف الأسرى . نهب عدة مدن . الدولة العثمانية التي يمثلها كانت يومذاك إحدى القوى العظمى فمم يخاف ؟ والتقى أخيراً بدوريا وجهاً لوجه وتردد الخصمان أمام المعركة . صارا يقومان باستعراض عضلات واحدهما أمام الآخر ثم انسحب دوريا وأعين الترك المشدوهة تنظر إليه ... فلم يأخذوا منه سوى سبع سفن تأخرت في الرحيل ...

إلا أن هذه المعارك البحرية لم تكن لترضي الملك شارلكان الذي جمع حملة قام هو نفسه على رأسها لغزو الجزائر البيضاء . كان معه فيها الأميرال دوريا وفرناند كورتيز ذباح المكسيك . مع ٥٠٠ سفينة و١٢ ألف بحار و٢٤ ألف جندي متطوع ! قبل أواخر سنة ١٥٤١ تراءت لهم الجزائر . وبدأت الحملة النزول . على بعد عدة كيلو مترات من المدينة ... ولكن ! في حين كان الملك شارلكان ينصب خيمة في أعالي الجبل المطل عليها بكل كبرياء . تلبدت

السماء بالغيوم وهطلت الأمطار ثم انقضت صاعقة رهيبة على الساحل. وتسمر النصارى في أماكنهم في الوحل جياعاً يرتجفون من البرد وجنود الآغا حسن تغطيهم بأمواج من الأسهم. وكانت الهزيمة كارثة! انسحبت المراكب خوف الغرق إلى ميناء آمن بعيد. بعد أن فقدت ثلثها... وهرب النصارى القشتاليون في فوضى تاركين خيولهم على الساحل بالسفن الهاربة. كانت هذه ثالث كارثة تتدخل فيها الطبيعة بجانب المجاهدين!

هذه الحملة تركت وراءها أكثر من ثلاثة آلاف قتيل مع ١٥٠ سفينة! ولم يجرؤ بعد ذلك أحد على مهاجمة الجزائر!!

الوحيد الذي شمت بهزيمة إسبانيا هو ملك فرنسا عدو شارلكان وحاسده وقد زاره خير الدين واستقبل لديه بأفخم الحفاوة. ولكن مفاوضات التحالف معه ضد شارلكان لم تنجح بينما كان أسطول خير الدين يقضي الشتاء في طولون وعليه الأسرى الإسبان الذين كانوا يموتون بالعشرات كل يوم في زنزاناتهم! وتخلص الملك الفرنسي بلباقة من هؤلاء الحلفاء وأعطاهم الهدايا للسلطان. والتموين للأسطول. وفي طريق العودة لم ينس خير الدين مهاجمة السواحل الإيطالية ونهبها وقد استقبل في استامبول استقبال الملوك. إنه قبودان باشا الذي رفع اسم الدولة العثمانية إلى الأوج وجعل الجزائر سيدة البحر المتوسط!

توفي خير الدين في الثمانين من العمر سنة ١٥٤٦. ولسنا نعرف إن مات في معركة أو قضى في فراشه ودفن في بشكطاش المقبرة التي ستكون المقبرة المقدسة لدى الأتراك. وظلت السفن التي تعبر البوسفور لسنين طويلة ملزمة بأن تدعو له وبأن تضرب المدافع تحية لأمير البحر الكبير...

ألا يستحق ذلك؟

يوم تينوشتيتلان

لعله ما من لحظة شلت الخيال والألسن كتلك اللحظة التي اكتشف فيها الضابط الإسباني هرناندو كورتيز مدينة المكسيك الأولى (نوفمبر سنة ١٥٩٠). بهتت الجماعة التي معه. تدورت عيونها وهي تنظر. عقل الصمت المطلق ألسنتها بعد أصداء السنابك أسابيع في الشعاب الجبلية والوعور. كتب واحد منها: «إنها أعظم لحظة خيالية في جميع عصور التاريخ» وكتب ثان وهو يطل من خلال الجبال والتلال: «كان كثيرون منا يبدون في شك: أنحن أيقاظ أم نيام»؟ وكتب ثالث في مذكراته وهو يرى إلى الأبراج والمعابد الهائلة المشيدة بالجير والحجارة فوق الماء تتمرى فيه كأنها مدينة أخرى تحت صفحته: لم يشاهد إنسان. لم يسمع. لم يحلم بشيء يشبه المنظر الذي بدا لنا ذلك اليوم! كل غرائز الجماعة الوحشية المتحفزة ألجمت فجأة!

كان ذلك أوائل أيام الاكتشافات في أمريكا. سمع الإسبان الذين كانوا يوغلون في أمريكا الوسطى وجزرها وهم في كوبا أن هناك إلى الغرب عبر البحر مدينة عجيبة غنية وملكاً عظيماً فتواصوا بكشف هذا الملك المجهول. واتجهوا وراء هذا الذي سمعوه إلى الغرب. لم ينتظروا أن يلاقوا مثل الذي لاقوا من الشقاء في الوصول كما لم ينتظروا أن يروا مثل ما رأوا في النهاية من الروعة. كانوا يحسبون أنهم ملاقو جماعة هندية بدائية وقرى متواضعة تنتثر فيها الأكواخ من الأغصان أو بعض البيوت فإذا هم يطلون، ولما يدخلوا بعد، في روع يبهتون!

زعيم الجماعة هرناندو كورتيز ضابط إسباني تمرس بالتجارب وعانى المر بين الأسنة والخيل حتى غدا قطعة من الصخر. وجماعة أشداء عليهم الدروع

والخوذات من الفولاذ وفي صدورهم ما هو أقوى منها وبأيديهم البنادق لا يملكها الهنود ، والمدافع تجرها الخيل صعداً ، كانوا لا يزيدون ، حين أبحروا من كوبا على ٥٠٨ جنود ومائة بحار و ١٦ من الخيل و ١٤ مدفعاً . كانوا يحسبونها نزهة حين انسابت بهم السفن الإحدى عشرة فوق الماء إلى المكسيك وأحلام الذهب والجوهر تتراءى لهم وراء الماء . وإنما بدأت الصعاب منذ نزلوا البر كان عليهم اجتياز الجبال الثلجية وقد يعلو بعضها إلى ٥٥٠٠ متر بوديانها ومهاويها وصقيع الدروب وظلمة الأدغال للوصول إلى تينوشتيتلان في قلب المكسيك . كل ما يعرفون عنها هو الاسم فقط . قضت حملة الاكتشاف أسابيع وهي تتقلب على الصخور وفي الغابات الكثيفة على الدروب كأنها الليل ، وعرفت الجوع المدمر ، لم يكن يخطر في بال هذه الزمرة المنهكة أن كشوفهم التي يكتشفون سوف تكون السبب في ثورة اقتصادية واجتماعية تغير نمط الحياة التغيير الجذري في أوروبا وفي ممتلكاتها الجديدة وراء البحار ... ولكنهم كانوا يسيرون ! .. يزلق بعضهم في الممرات الوعرة ، ويهوي بعض في الوديان لا تدري أيان مستقره السحيق ؟ وبعض تلفه الأنهار لفاً فالتيار يديه ثم يخفيه كأنما هو يودع الدنيا قبل أن يرميه جثة على بعض الشواطئ ! هذا إلى القبائل الوحشية وسهامها تتخطف الرجال في الغابات وصنوف الأفاعي وزنين الحشرات وهمهمة الوحش وكم من مرة طلب رفاق كورتيز العودة يائسين ولكنه لم يكن يسمع سوى نداء الظفر بأرض جديدة يضيفها إلى المملكة الإسبانية وبالثروات يضيفها إلى جيبه وجيوب رفاقه . أحد عشر أسبوعاً استمر السير المرعب !

وأخيراً عبرت الزمرة ممراً جبلياً بين اثنين من جبال النار ثم انحدرت إلى غابة كثيفة ظهر بعدها عبر التلال أفق المدينة : تينوشتيتلان ! إنهم في قلب إمبراطورية الأزتيك سكان المكسيك الأولين . استقبلتهم المواكب بترحاب يشبه العبادة . كان هؤلاء الأزتيك بدورهم ينتظرون آلهة بيضاء تعبر إليهم من المشرق . على السطوح والأشجار انتشر الناس . وأتى الملك في ثيابه المثقلة

بالجواهر والذهب يلاقيهم وتهامس الشعب الفرح : إنه الملك مكتزوما يخرج بنفسه وخفض الجميع أبصارهم لأنه ليس لأحد أن ينظر إلى الملك . وبقيت جماعة كورتيز يتلفت بعضها إلى بعض وعيونها تكاد تستدير من الدهشة ! إنهم في طريق طويل مستقيم يحفه الماء ضمن بحيرة واسعة والأبنية في وسطها ومن حولها . المدينة جزيرة كاملة رائعة .

تبادل كورتيز مع الملك هدايا العقود في قصره ثم نزل المدينة العجيبة ليفاجأ بأسطول من السفن الحربية المزينة بألوان الزهور والعطر ينتظر . إنهم نبلاء المدينة يحملون الهدايا وعقود الذهب ، وأثمن المنسوجات ثم كانت مفاجأة كورتيز الكبرى حين انحنى مكتزوما على ضيفه قائلاً : سيدي هل أتيت لاستلام عرشك ! الشعب طوع يدك وتحت أمرك وحمايتك ! مرحباً بك في مملكتك يا سيدي !

لم يصدق كورتيز ما تسمعه أذناه ولكنه حين رأى أنه حتى الخيل التي وصلت معه تعامل كمخلوقات سماوية وتفرش لها أسرة الزهور أدرك مدى خطورة موقفه لو اكتشف الأزتيك أنه ليس بإله وإن كان أبيض اللون ولا نزل من السماء وإن أتاهم من المشرق !

لقد انتهى الكشف بالنسبة إليه وبدأ الفاتح الجشع يقفز في خاطره . اعتقل الملك بالأغلال ليجعله طوع أمره يصدر لشعبه الأوامر التي يشاء . أعلن أن البلاد تابعة لشارلكان ملك إسبانيا . أعدم حرقاً ضباط الملك أمام قصره وهو في القيود . بدا العمل شديد السهولة . لم يكن كورتيز يحلم بذلك . لكن المصاعب التي لم تبدأ إلا حين انتشر خبر الكشف وفوجئ كورتيز بعد شهر ، بقدوم عدوه نارفايس في ألف وأربعمائة جندي إسباني يطلب إليه الجلاء عن تينوشتيتلاند بأمر من نائب الملك في كوبا ! خادع كورتيز قوة نارفايس التأديبية وفر من فوق الممر الطويل فيما يسمونه بالليلة الكئيبة . هل خرج كورتيز من حلمه الفردوسي كما خرج آدم من الجنة ؟ أبداً لقد استطاع بعد عدد من

المعارك أن يعود إلى تينوشتيتلان، وليجد أن الدنيا انقلبت في غيابه القصير: هدم الجند الإسبان صنم الأزتيك الأكبر. سرقوا المعابد. أجبروا الناس بالقوة على اعتناق المسيحية مما ملأ الأزتيك بالمرارة! فما لبثوا بعد عودة كورتيز إلا قليلاً حتى ثاروا به وبالجند فقتلوا ثلثهم وطردوا الباقي من المدينة. هل طار بذلك حلم المملكة التي كان يملأ رأس كورتيز؟ إنه سوف يعيده بالقوة.. بنى السفن في البحيرة لضرب المدينة. اجتذب له أعداداً هائلة من التيلاسكالا قبائل المكسيك البدائية الذين كان الأزتك يستعبدونهم. وعدهم بالوعود المعسولة... أليس بإله في زعمه؟

في أواخر سنة ١٥٢٠ كان قد أكمل استعداده ٥٤٠ جندياً من المشاة. أربعون من الفرسان وحوالي مائة ألف من المكسيكيين. حاصر المدينة الحصار الدامي الشرس. هدم أجمل ما فيها من الأبنية والمعابد بالمدافع. قتل حوالي ربع مليون من سكانها. بعد أن قطع عنهم المؤونة والماء... كانت مدافعه في قذيفة بعد أخرى تدمر وتدمر. دافع الأزتيك بضراوة. أغرقوا المهاجمين بالسهام والحجارة. قدموا من أسروه من الإسبان ضحايا للإله سائلين الرضى عنهم. صلوا... وعبثاً ما صلوا!... كان جيش كورتيز يقتحم المدينة مدمراً كل شيء حتى سدت الأزقة بالخرائب وغصت بالجثث الممزقة والحرائق والنار. بهذه المأساة الفاجعة انتهت إمبراطورية الأزتيك. وظل الإسبان ٣٠٠ سنة بعد ذلك يدمرون كل أثر لحضارتها. حولوا معابدها كنائس. أحرقوا كتبها المقدسة. أجبروها على التنصر قسراً. جعلوا من نبلائها عبيداً. لم يبق من تلك الإمبراطورية العظيمة ولا من حضارتها كبير أثر. المصارع الإسباني كما في مصارعة الثيران لم يترك فريسته إلا جثة تجر خارج حلبة التاريخ!

غابت تماثيل الآلهة التي كانت تقوم في تينوشتيتلان بكل مكان. انتهت احتفالاتها بالضحايا البشرية للآلهة في أعلى الأهرامات المدرجة. درس

قصر الملك الذهبي الذي كان في مائة غرفة ومائة حمام حار وعشرين مدخلاً وتتسع قاعته لثلاثة آلاف شخص. لم يبق شيء من العلوم: الفلكية المتقدمة. إلا حجر الشمس الذي كتبوا عليه التوقيت. محي السكان الذين كانوا يعدون اثني عشر مليون إنسان وتحول بعضهم قبائل رحلاً. ضاعت قوانينهم ولم تسلم لولا التقاليد إلا بقايا مِن نقوشهم الحجرية الرائعة على المعابد ومن فسيفسائهم بألوانها المدهشة ومن روائع السجاد الذي كانوا ينسجون. ذهب كل شيء من هذه الحضارة الباذخة التي يحاول المكسيكيون اليوم جمع نتفها وبقاياها وكتاباتها ليقيموا منها تاريخاً قديماً لهم... مع أن الكثير الكثير منهم هم من أحفاد المدمرين...

ويتعصب المتعصبون لكورتيز وكثيراً ما يمتدحونه وهو أول المدمرين. ترى هل عرف التاريخ مكتشفاً بدأ معبوداً سماوياً وانتهى في ستة أشهر إلى وحش شرس مثل كورتيز؟

ويسألونك عن الملك مكتزوما؟ قل: فتشوا عنه تحت الأنقاض! ما من أحد بقي ليبحث عنه!



كلمة أخيرة

وأنت ! بعد هذه الأحاديث هل تشوقك المغامرة ؟ هل يغريك أن تضع رجلاً على الأرض ورجلاً في المجهول وتسير ؟ هل جربت مرة أن تقف أمام العدم وجهاً لوجه ؟ هل اجتذبتك قمة عصية أن تغزوها . أو مهر جموح . بعض الناس هكذا خلقوا تنغل في شرايينهم الشياطين .

« عش في خطر » تلك هي النصيحة الثمينة التي تمخضت عنها عبقرية نيتشه في كتابه « هكذا قال زرادشت » . لكن هل يستطيع كل امرئ أن ينفذ تعاليم هذا النبي الكاذب ؟ من ذا الذي يستطيع أن يقف على حافة الهوة وينظر في أعماقها ولا تدور به الأرض ؟ من ذا الذي يغريه المجهول فيغمض عينيه ويلحق به ولو إلى الهاوية ؟ من ذا الذي ترقص له المغامرة على الصراط بين الموت والحياة فيرقص معها عليه ؟ قد تقول : إنهم قلائل . بلى ! إنهم كذلك وإنهم لأقل من القليل . ومع ذلك فهم خبز الحياة الدنيا وملحها . ولعلهم القوى التي تجر مركبة الإنسانية في كل الدروب . ولعل الإنسان لم يكن إنساناً إلا لأنه مغامر . كل حضارة الإنسان إنما كانت لحظة تحد لذاته واستجابة لهذا التحدي . وحضارته لم تكن لولا مغامراته وراء ما لا يعلم . أما أن تزل بك القدم وأنت تقفز فذلك من شروط اللعبة !

والمغامرة على أي حال نزوع داخلي في الكيان . لست تدري ما هيته . ولكنه ينغل في الدم نغلاً . يثير . يعذب . يفترس الأعصاب . وإذا كان بعض

الناس يوضع على طريق المغامرة بالرغم عنه ، فبعضهم لا يعيش بدونها . وقد لا تنتهي المغامرة إلى شيء . فهي سراب أو كالسراب . ولكنها قد تكون كاكتشاف أمريكا نهراً من الذهب ، ودنيا بقدر الدنيا . واليأس الذي يحس به الفاشلون فيها لا يعدله في الكفة الأخرى إلا جنون الفرح الذي يحس به الظافرون . ومن المغامرة تعلم الإنسان الكثير وما يزال يتعلم . ترى أليست هذه الحياة الدنيا كلها مجرد مغامرة إلهية كبرى . ﴿باسم الله مجراها ومرساها إلى ربك يومئذ منتهاها﴾ ؟

الفهرس